

روايات عبير

آن هامبسون

إذا كانَ له قلبٌ

١٣٨

روايات عبير

اذا كان له قلب

بأي شوق يتطلع الواحد منا الى مغامرة مقبلة. الى رحلة تأخذنا من عالم الرتابة اليومية الى آفاق واسعة لا تعترف بالحدود! الأمل يفتح ذراعيه على وسعهما، والحياة أغنية تطفح بوعودها الجميلة. وكذلك الخيبة. وكذلك الألم.

منذ البداية، وحتى وهي على ظهر السفينة التي تبحر بها الى جزيرة دومينكا في البحر الكريبي حيث تتسلم عملها الجديد كمساعدة لعالمة الآثار نورا ردفيرن، كانت الآنسة بني دافدسون تعرف ان أحلامها اكبر من ان يتحملها الواقع. ورغم جمالها ورصانتها، رغم محاولاتها المخلصة لتفادي الاصطدام مع ماكس ردفيرن، ابن نورا المتعجرف، الصارم الذي يصر على القاء الأوامر والتشديد على اطاعتها، بدأت ترى حياتها الجديدة على شكل هاوية تتسع تحت قدميها شيئاً فشيئاً...

حتى وقع ما لم يحسب حسابه أحد.

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية

ISLE OF THE RAINBOWS

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - أزهار استوائيه

كانت بنّي متكئة على الدرابزون تحدق امامها عندما رأت معالم الجزيرة تبرز من خلال الضباب الكثيف وتتوضح، كلما اسرع القارب نحوها وهو ينساب على مياه بحر الكريبي الهادئة.

- ها هي جزيرة الجبال الشامخة والشلالات المنحدرة، جزيرة النخيل والاقحوان!

ابتسمت بنّي لشاب انيق اقترب منها ووقف بجانبها. غراهام برايس كان احد المسافرين الثمانية على ظهر قارب الموز ومن بينهم بني ومديرتها. وغراهام هذا استاذ الرياضيات في المدرسة الرسمية في جزيرة دومينكا، وكان عائداً من انكلترا بعد تمضية عطلة الربيع بين اهله هناك.

- شيء مثير حقاً!

وتمتمت بني بصوت خافت:

- ولكن هذه الاثارة يعود سببها الأهم الى لقائها بماكس ردفيرن وليسي مكوثها بضعة اشهر في فردوس هذه الجزيرة في الهند الغربية. اذ ان والد بني ووالدة ماكس كانا قد اعلنا خطوبتهما مؤخرا. وسيصبح ماكس وبني بهذا اخا واختاً. كانت بني دائماً تتحسر لأنها وحيدة والديها، وتتوق الى اخ لتصبح جزءاً من عائلة بعد ان عاشت طيلة اثنتي عشرة سنة مع والدها، وبعد ان توفيت والدتها وهي ما تزال طفلة في الثامنة.

تساءلت بني اذا كان ماكس متحمساً لتكون له اخت، اذ كان هو الآخر وحيد والديه.

- انظري الى هذه الخطوط الصفراء. (قال غراهام) انها مزيج من

الشمس والمطر.

كانت الخطوط اشعة واضحة تنحدر من الشمس عابرة فوق الجزيرة لتنعكس من ثم في البحر. هذه هي جزيرة اقواس القزح كما يسمي بعضهم دومينكا، حيث كثيراً ما يشاهد المرء الشمس والمطر في آن معاً. لم يدم هذا المشهد الرائع اذ ان الشمس قاربت على المغيب مع ان الوقت لم يكن الا الخامسة مساء.

- انها تجلب الضباب. (قالت بني). هل الأمر دائماً هكذا؟

- كلا، ولكن لا تنسي انك عند خط الاستواء الآن حيث تغطي الغيوم قمم الجبال بصورة مستمرة تقريباً.

اقترب منها ولمس ذراعها وقال:

- ارجو الا تخيب آمالك في شقيقك الجديد.

لم ترق بني هذه الملاحظة اذ انها تشتم منها ان غراهام لا يحب ماكس، ولم تعلق عليها ايضاً، اولاً احتراماً لماكس وثانياً اعتقاداً منها انه لطيف. وكل ما قالته بني هو:

- ماكس ليس شقيقي بعد. سيتزوج والدي من والدته عندما يحال على التقاعد بعد شهرين من الآن.

وبدوره لم يعلق غراهام على ذلك بل قال بشيء من الوجل:

- لن نقطع اي اتصال بيننا بعد ان ننزل الى البر، اليس كذلك؟ صحيح اني عرفتك منذ تسعة ايام فقط لكننا سنبقى صديقين يا بني، صديقين حقيقيين.

- اطمئن. سنبقى صديقين حقيقيين.

- سأرافقك في تجوالك عند نهاية الاسبوع، وسنخرج في بعض الامسيات حيث ان الليل يسدل ستاره في وقت مبكر جداً. وقد نذهب الى حفلات راقصة وما شابه.

ابتسمت بني قليلاً. لقد عملت مع نورا ردفيرن مدة تزيد على السنة واختبرت سخافة تخطيط المواعيد. وتابع غراهام كلامه:

- وقد تسحرك جزيرة دومينكا فتقررين البقاء الى الابد.

- لا شك في ذلك.

وعادت تنظر الى الجزيرة. كانت الغيوم تتسارع مارة فوق مجموعة جزر

وندوارد، ولكن قمم الجبال اجتذبتها وانزلتها سيولاً من المطر. هنا يكمن سر تكاثف الادغال في الداخل، وكثرة الانهر التي تتقاطع في جميع انحاء الجزيرة. قالت بني موضحة:

- انا هنا في عمل، وحيث تذهب السيدة ردفيرن اذهب.

- ولكن بعد زواجها لن تستطيع متابعة مهنتها وتنقلاتها.

- التنقل من ضرورات عملها، ولهذا تنتظر حتى يتقاعد والدي وينضم الينا.

كلا يا غراهام، بقائي هنا غير وارد.

- افهم ذلك.

وبعد برهة سألها تطفلاً: هل تحبين عملك هذا بالفعل؟ الا يزعجك التنقل؟

- كنت عالمة تماماً بمتطلبات العمل عندما قبلته.

ذكرتها عبارتها الاخيرة بأول مقابلة لها مع مديرتها. عندما دخلت عليها رأت بني امامها، نحيلة هزيلة ذات شعر ابيض كالثلج وعينين زرقاوين متوقدتين. لم تنتبه نورا ردفيرن الى دخول بني لانهماكها في فحص قطعة صخرية تحت عدسة مكبرة. اخيراً رفعت رأسها وسألت بني والدهشة في عينيها:

- من انت؟

- الآنسة دافدسون. لي موعد معك.

- آه، صحيح. ما ابلهني. نعم، انك تريدين العمل هنا اجابة لاعلاني في الجرائد. منذ متى وانت واقفة هنا؟ استريحي يا عزيزتي. لماذا لم تتنحنحي، او تعطي اشارة ما؟

- كنت مستغرقة في عملك.

- هذا؟

واشارت الى الحجر.

- مهم جداً، خاصة ما يحتويه من معدن. هل عملت مع المؤلفين قبل ذلك؟

- لا ، ولكني متأكدة...

- لم تعملي؟

هنا قطبت السيدة ردفيرن حاجبيها.

ـ وما هي مؤهلاتك الاخرى التي اشترطتها؟ لحظة من فضلك. كل شيء في الجريدة هنا. . . كلا، الجريدة ليست هنا. آسفة، استعملتها في لف بعض الحجارة.

ـ انت تريدين شخصاً يهتم بعلم طبقات الأرض. تعلمته في المدرسة لأنه كان يثير اهتمامي ولا ازال متصلة به في مطالعاتي.

ـ آه. . .

ترددت قليلاً ثم اضافت:

ـ حسناً فيك كل المؤهلات المطلوبة. . . آسفة لأني لا اجد الاعلان. لا بأس، يبدو لي انك فتاة لامعة وستتعلمين بسرعة. وفوق ذلك انت مليحة. وهكذا توفرين علي الوقت الذي قد اخسره في النظر الى فتاة باهتة بدون اي وحي.

ماذا تعني بالوحي؟ هل يلزم لكتابة اشياء واقعية ضمن اختصاصات السيدة ردفيرن؟

نظرت الى بنّي بعينيها النافذتين وقالت:

ـ متى ستباشرين العمل؟ يوم الاثنين المقبل؟

ثم اضافت ان عليها ان ترافقها الى فرنسا ويوغوسلافيا للقيام بابحاث على الاحجار الجيرية في بعض المناطق هناك. وبعدها ستتوجه الى الهند الغربية.

ـ قسم كبير من كتابي سيتناول الثورانات البركانية التي وقعت في تلك المنطقة.

واضافت موضحة:

ـ سأجمع بين الراحة والمتعة. ان ابني يعيش في جزيرة دومينكا حيث يمتلك مزرعة موز. ستكون دومينكا مركز مكتبنا الرئيسي وسنعيش مع ماكس في بيته الجميل والذي ستحبينه بلا شك.

كان قد مضى على عملها اكثر من ستة اشهر عندما عرفت والدها على السيدة ردفيرن. ولكنها لم تتوقع ان يتجاذبا بهذه السرعة الفائقة. ولم يخطر على بال بنّي ان والدها سيتزوج مرة ثانية ولا السيدة ردفيرن التي هي في نظر بنّي آخر امرأة يختارها والدها، لأنها بالرغم من دماثة خلقها ولطفها متقلبة

وغريبة الأطوار. وما زاد في دهشة بنّي هو ان يقع اختيارها على والدها لأن السيدة ردفيرن تملك ثروة طائلة تركها لها زوجها، عدا كونها علماً من اعلام التنقيب في طبقات الأرض. وكتبها مرجع للعلماء وتستعمل في الجامعات والكليات في جميع انحاء العالم. اما والدها من جهة اخرى، فهو فقير بالمقارنة. ومع ان راتبه الشهري محترم الا انه سيتضاءل كثيراً عند التقاعد. ولكن يبدو ان المال لم يكن عاملاً في العلاقة بينهما. وستسر بنّي اذا تزوج والدها في هذه المرحلة من عمره، واذا كسبت شقيقاً في هذه المرحلة من عمرها.

ـ اتعرفين المدة التي ستمضينها في الجزيرة؟

نبهها سؤال غراهام من تفكيرها في الماضي القريب، واعادها الى واقعها على ظهر القارب. فقد نسيت تقريباً وجود الشاب بجانبها:

ـ هذا يعتمد على التحريات التي تقدر لها السيدة ردفيرن اربعة او خمسة اشهر. اما والدي فسيأتي حالما يتقاعد وسيعقد قرانه هنا.

ـ هذا يعني ان اقامتك هنا ستطول اكثر مما توقعت في بادىء الأمر. ولا اعتقد ان السيدة ردفيرن ستحطم هناء عائلة ما زالت في طور التكوين.

ـ فكرت في هذا.

قالت بنّي وفي نظرتها خيبة امل:

ـ اخر اقسام الكتاب عن البراكين ولا ارى مبرراً في عدم انهاء الكتاب هنا. واذا قررت السيدة ردفيرن ذلك يعني اننا سنمضي سنة كاملة هنا.

ما زالت دلائل خيبة الأمل ظاهرة في عينيها الداكنتين الجميلتين، فبالرغم من انها قبلت بالأمر الواقع، اي الابتعاد عن «شقيقها» مدة من الزمن، الا ان الفراق سيكون مؤلماً. سيبقيان طبعاً فردين في عائلة واحدة، وسيتبادلان الرسائل بانتظام وسيزور ماكس انكلترا بين الحين والآخر، ولكن هذا شيء، والعيش معاً شيء آخر. لذا عزمت بنّي على اقناع السيدة ردفيرن بأن تبقى في دومينكا حتى تنتهي من كتابها.

ـ سنة كاملة؟ مدهش!

هتف غراهام مبتهجاً.

فوجئت بنّي فأدارت رأسها بحركة سريعة وقالت:

ـ لا اعتقد انها ستبقى.

قالت ذلك والأمل يحدوها بأن غراهام لن يتوقع شيئاً اكثر من الصداقة معها. ولاحظت اهتزازاً غريباً في السماء عندما غابت الشمس وراء افق الجزيرة فقالت بتكدر:

- لن نرى غروب الشمس. يا للخسارة!
- نحن في الجانب الآخر من الجزيرة، وكل ما نحس به في هذا الجانب هو الاهتزازات.

وبعد بضع دقائق انضم اليهما مسافران، بول وزوجته، كانا سيقضيان اسابيع في بيت والدي بول اللذين يملكان مزرعة ليمون في الجزيرة.

- اريد ان ارى كيف تجري الأمور مع السيدة ردفيرن.

قالت بني ذلك وتركت رفاقها الثلاثة على ظهر القارب ونزلت الى غرفة مديرتها.

- آه هذا انت يا عزيزتي.

كانت السيدة ردفيرن جالسة على مرقدها ترسم خريطة لمجموعة من جزر وندوارد، فسألت بني اذا دخل القارب الميناء، واجابت هذه بالنفي فعلقت السيدة ردفيرن:

- ستتسلل داخل الثغر في روزو.

وعادت الى رسمها.

- تتسلل؟ غريب معنى هذه العبارة.
- من عادة السفن ان تدخل الثغور خلسة مستعملة فقط اضواء الملاحة.

رفعت رأسها ونظرت في وجه بنيّ وقالت:

- عزيزتي بني... انا... آ....

كانت تتلعثم، الا انها تابعت:

- بخصوص موضوع خطوبتي لوالدك...
- نعم؟ (قالت بني متعجبة:)
- اريد منك الا تتكلمي عنه... في الوقت الحاضر على الأقل.
- الا اتكلم عنه؟

بدأ قلبها ينبض بسرعة:

- يعني ان ابنك لا يجب ان يعلم بالموضوع؟

من الغريب انها لم تطلع ابنها بعد على خطوبتها. فقالت السيدة:

- كان من المفروض ان اعلمه به يا بني. لكن ماكس شخص صعب المراس قليلاً... اوه، ارجو الا اكون قد اعطيتك فكرة خاطئة، لكنك تعرفين ان الأبناء لا يحبذون ان تتزوج امهاتهم مرة ثانية.
- ان هذا الأمر يفوق ادراكي. ابتهجت كثيراً عندما علمت برغبة والدي في الزواج منك، فلم لا يشعر ماكس بالشيء نفسه؟

لم يدر في خلد بني ان ماكس يعارض هذا الزواج، اذ كانت تؤمن انه من الطبيعي ان يهتم ماكس بسعادة امه كما تهتم هي بسعادة ابيها.

- يجب ان نخبره. لا يحق لنا اخفاء ذلك عنه، ولما هزت السيدة ردفيرن رأسها رافضة، قالت بني:
- اذن متى ستخبرينه؟
- فيما بعد... في وقت اكثر مناسبة.

كانت السيدة ردفيرن مرتبكة وتساءلت بنيّ اذا عدلت عن رأيها.

- انت تحبين ابي؟

سألتها لاهثة.

- احبه بكل تأكيد.

كان الصوت خافتاً ودالاً على الصدق. وتطلعت السيدة ردفيرن في عيني بني دون ان ترف، وتابعت:

- اني احبه وانوي الزواج منه، ولكني اريد ان اطلع ماكس على ذلك في وقت يلائمني... عندما ارى ان المناسبة مؤاتية.

اقتنعت بني بهذا التوضيح ولكن بشيء من خيبة الأمل. كيف يكون موقفها اخوياً تجاه ماكس بينما يجهل كل شيء عن خطوبة امه؟

- شيء آخر يا بني... عودي الى عادة مناداتك لي بالسيدة ردفيرن. ارجوك، لا تنسي.

قالت:

- سأحاول ان اتذكر. وخرجت بعد ذلك.

استيقظت بني مع شمس كان شروقها ذهبياً ووهاجاً. اطلت من النافذة والقت ببصرها على حديقة بيت ماكس ردفيرن في مزرعته. كانت الحديقة تتوهج بالألوان الزاهية كأنها شعلة من نار، زاد من رونقها شعاع شمس

الصباح. ووصل الى انفها اريج زهرة البنفسج الاستوائية بلونيها الاحمر الارجواني، واريج نبتة الاقحوان الصفراء التي يطلق عليها الناس هناك اسم رذاذ الربيع لأن ازرارها الصفراء واوراقها تتدلى في عناقيد، هذا غير نبات الأوركيد والغار الزهري وغيرهما من النباتات الاستوائية الباهرة التي تخطف البصر.

كان البيت محاطاً بمزارع الموز والجبال الشامخة التي تنحدر منها السيول والشلالات لتروي الاحراش المتشابكة وشجر الأرز والنخيل.

تذكرت ان غراهام قال لها انها ستحب الجزيرة. ولا تتصور ان هناك احداً لا يتمتع بهذا الفردوس الاستوائي. كما قال لها انها ستسر بصحبة ماكس.

اغتسلت بني وارتدت ثيابها، وبعد نصف ساعة نزلت الى الحديقة حيث كان طعام الفطور جاهزاً على سطح صغير تحيط به الازهار. لم يتأخر ماكس عنها فدعاها الى الجلوس وقال ان والدته ستتناول فطورها في الفراش.

كان ماكس يقرأ رسالة فلم يكن هناك مجال للحديث. تنهدت بني بخيبة عندما قارنت بين ماكس الذي كونته في مخيلتها وماكس الجالس امامها. فقد حلمت انه سيكون عاملاً هاماً في حياتها تلجأ اليه كأخ لها بكل ما في الكلمة من معنى. تفرست فيه ورأت انها ليست اكيدة من انه لن يكون حجر عثرة في طريق زواج امه. من رآه وهو يطالع تلك الرسالة باهتمام وعبوس، وبشفتين مطبقتين كالباب الموصد، سيعتقد انه يقرأ خبراً سيئاً. لكن بني تعلم جيداً ان سبب عبوسه ليس في الرسالة بل فيه هو. هذا هو ماكس على علاته. ماكس الذي لم يؤثر فيها عندما وقع نظرها عليه لأول مرة، والتي لم تشعر فيها بتلك اللهفة التي توقعتها في اخيها العتيد. ومما زاد في ملامح وجهه الجاف قساوة حاجبان اسودان مستقيمان وشعر كثيف. هل يشبه والده؟ هكذا تظن بني لأن والدته شقراء وتقاطيع وجهها ناعمة وفمها عريض وعطوف.

كانت بني تتأمله وهي تغرف بملعقتها بعض النارنج المندي ورفع ماكس رأسه فجأة فالتقت نظراتهما. كانت له عينان سوداوان تتركان انطباعاً انهما تنفذان الى اعمق اعماق الناظر اليه.

- هل صحيح ما قالته والدتي بأنك ستباشرين العمل فوراً؟

كان صوته يعكس هيئته، عميقاً وممتلئاً وجذاباً لدرجة قصوى.

- فوراً. لم تقل السيدة ردفيرن شيئاً. وربما ترغب ان تبدأ أبحاثها في اقرب وقت ممكن.

- ستجدين مكتبك او غرفة عملياتك جاهزاً، وهو في الجهة الثانية من البيت تجاه البحر. لم تستطع تريزا توضيبه البارحة لأنها كانت مريضة.

تريزا خادمة داكنة اللون التقت بها في الليلة السابقة عندما حيّتها ومستخدمها ماكس بابتسامة عريضة كشفت عن اسنان بيضاء لامعة.

كانت تريزا تجهل كل شيء عن طهو الطعام للبيض وعن الأعمال المنزلية. ولكنها الآن تساوي وزنها ذهباً، كما اكد ماكس لوالدته. وزوجها مانيو الذي يكبرها بكثير جوهرة هو الآخر. فبالاضافة الى مسؤوليته في العناية بالحدائق الواسعة، وجد الوقت الكافي ليزرع جميع أنواع الخضار اللازمة للبيت وليهتم بعدة خلايا للنحل.

ابتسمت بني بمجاملة وفوجئت بماكس يسألها:

- أتحبين العمل مع والدتي يا آنسة دافيدسون؟

المفاجأة كانت في مناداتها بالآنسة دافدسون مما يدل على انها أبعد بكثير عن ان تكون شقيقة له في الوقت الحاضر. لكنها اجابت قائلة:

- أحب ذلك كثيراً. العمل مثير للهمم والسيدة ردفيرن سيدة كلها لطف وعناية.

كان ينظر اليها كمن يريد ان يسبر غورها:

- كم من الوقت مضى منذ ان باشرت العمل مع والدتي؟

- اكثر من سنة بقليل.

قالت ذلك ولفت نظرها عصفور وزّار كان يتنقل من زهرة الى اخرى ليمتص رحيقها ثم يقترب من ماكس كأنه يريد القاء نظرة عليه.

- منذ سنة. لكن موقف والدتي لا يشبه موقف رئيسة عمل.

التفتت اليه بني وسألت:

- لا أفهم ما تعنيه.

- ما أعنيه هو ان الليلة الفائتة... كان موقفها تجاهك موقف حنان، حنان عميق.

من الطبيعي ان تقف السيدة ردفيرن هذا الموقف تجاهها وهي التي

ستكون زوجة أبيها، ولكن بني لا تستطيع اعلام ماكس بذلك.

- مع انك لست الا امينة اسرارها، أرى هذا العطف غريباً جداً.

كان وهو يتكلم يضع الزبد على شريحة من الخبز مثبتاً عينيه السوداوين في بني وفيهما بصيص من الشك. قال:

- قلت لتوك انها سيدة كلها لطف وعناية. هل وجدتها كريمة اكثر من اللازم؟

تورد وجهها من الانفعال وبرز جمال تقاطيعه، وعيناها السوداوان دلّتا على عتاب وتألم. عتاب لنفسها اذ انها بكل سذاجة اعتقدت انه ستقوم إلفة بينهما، وتألم لخيبة املها فيه. فهل سيتغير موقفه منها اذا علم بخطوبة أمه لابيها؟ انها تشك في حدوث ذلك.

- انا اتقاضى راتبي يا سيد ردفيرن.

قالت بجفاء غير مألوف لديها:

-واقرّ بأن راتبي محترم، ولكني أكد في عملي بضمير مرتاح، ولذا اعتقد اني اكسب عيشي بجدارة.

رفع حاجبيه عجباً للهجتها وآثر لنفسه موقف كبرياء. حوّلت بني بصرها عنه وتتبعت الوزّار الذي ما فتيء يمتص رحيق النبات. لفتت نظرها البقعة النارية اللون في جبينه.

- يا آنسة دافدسون،

قال بحزم:

-أكون ممتناً لك اذا تذكرت انك مستخدمة... مستخدمة ليس الا. اظن اني أوضحت ما فيه الكفاية.

لمعت عيناها واحمرت وجنتاها غضباً، ولكنها كبتت ردها الجاف الذي كادت ترميه به، لأن ماكس هو ابن رئيستها وليس لأنهما سيكونان اخا واختا في القريب العاجل، اذ ان هذا التحول في القربى لم تعد له تلك الاهمية الآن.

- كلا يا سيد ردفيرن، انك لم توضح ما فيه الكفاية كما قلت. انا اعمل لوالدتك وليس لك، ولذا لا أرى نفسي ملزمة بتلقي اوامرك.

زمّ شفتيه بشدة وقال مترفعاً:

- لا اعتقد اني اعطيتك اوامر يا آنسة دافدسون.

- قلت: يجب ان اتذكر اني موظفة. اليس هذا امراً؟

- كان طلباً.

- اذن وضح سبب هذا الطلب.

كان ردها لاذعاً وسريعاً. بدت عيناه كأنهما من فولاذ. اسند ظهره الى الكرسي وتوقف عن الأكل وقال:

- ساشرح لك اذا كان لا يضيرك واضح الكلام.

- كن صريحاً.

واجابته بالنغمة اللاذعة اياها:

- منذ لحظة ذكرت والدتي باسمها الاول دون اي لقب مما يدل على انكما على صلة حميمة، وهذا غير مستحب بين رئيس ومرؤوس. ولسوء الحظ فان لوالدتي قلباً ليناً حنوناً وهذا كان سببا في ان بعض موظفيها استغلوها في السابق...

قاطعته بني بحدة:

- لن استغل احدا وبكل تأكيد لن افكر في الانتفاع من سيدة لطيفة كالسيدة ردفيرن.

لم يعد في امكانها كبت جماح شعورها فارتفع صوتها تأثراً ولمعت عيناها من الغضب وقالت وهي محتدة:

- كيف تجرؤ على اتهامي بشيء كهذا؟

- هدئي من روعك.

وقال بصوت هاديء:

-لم أوجه اي تهمة لك شخصياً، انا فقط ذكرت حقيقة. كان لوالدتي امينات سر قبلك وكلهن كن ذوات دالة عليها وهذا شجعهن على الاستفادة من كرمها الطبيعي وكان ان صرفتهن بنفسي. اعطيك مثالا عن امينة السر التي كانت قبلك. نجحت في اقناع والدتي باقراضها مبلغا كبيرا من المال. ولولا عودتي من انكلترا في حينه وايقافي للشيك لذهب المبلغ أدراج الرياح.

كان عصفور الوزّار يحوم حول يده الآن، ومعه وصل اليهما نسيم من البحر حرك أوراق شجر جوز الهند القريب من الشاطيء. وجذب المنظر انظار بني الى اشجار النخيل الشاهقة تحت قبة سماء الكريبي، واختلط صوت حفيفها بصوت دندنة حشرات الليل فأضفى جمالا سحريا

- يشرد فكرها احياناً كما علمت من شخص كان يتردد عليها. ولكن أليس غريباً الا تكلمك عني؟ مضى علي ستة اشهر وانا في وصايته. اهتم بي ماكس بعد موت والدي الذي كان قدّم له خدمة جلّى في احدى المرات.

تناولت شيرلي شريحة من الخبز ودهنتها بالزبد، وقضمت منها قطعة صغيرة بأناقة متناهية وقالت لبني وهي تبتسم:

- سنتزوج. ناوليني المربى من فضلك.

ناولتها بني ما طلبت وهي شاردة الذهن. ماكس يتزوج؟... هذه البنية؟ توقعت بني الزواج بين نورا ووالدها، وان يصبح ماكس اخاً لها نتيجة لهذا التقارب، ولكنها لم تتصور قط ان يتزوج وان تفقده بهذه السرعة. تنهدت أسى اذ كل شيء سار على غير ما تصورت.

- متى سيكون زفافكما؟

تساءلت بني لماذا لم تذكر رئيستها هذا الزواج.

- اوه، لم نعين تاريخه بعد. لكن حذار. لا تقولي شيئاً لماكس، لأنه لا يعرف بعد.

- لا يعرف بعد؟

سألت بني مذهولة.

- الأمور تجري على ما يرام ولكنها تتطلب وقتاً طويلاً.

- طبعا، طبعاً.

صبّت شيرلي بعض القهوة. كل حركة فيها كانت ناعمة وحلوة وصبيانية، وكانت تعرف ان بني تراقب حركاتها... وكانت مسرورة بذلك.

- ماكس صعب المراس اكثر مما تصورت. كلهم هكذا.

- افصحي عن كلامك لاني لا افهم ما تعنين.

- الأوصياء صارمون وجامدون ولا يقعون في الحب، أليس كذلك؟

تساءلت بني عن مدى صبر ماكس للاستماع الى ثرثرة هذه الصبية والأنكى من ذلك، للوقوع في حبها.

- الأوصياء دائماً يتزوجون من اللواتي هن في وصايتهم... ولكن ليس في الحال لأنهم يصبرون طويلا، ويمضي الوقت قبل ان يكتشفوا انهم وقعوا في حبهن، أليس كذلك؟

- آسفة. لا ادري.

- لا تدرين؟

وضعت قليلاً من السكر في القهوة وأخذت تحركها.

- انهم لا يعرفون كم جميلات هن الا بعد وقت طويل وعندئذ يتزوجونهن.

- هل تعتقدين ان ماكس سيقع في حبك؟

سألتها بني وهي تجد صعوبة في كبت ابتسامة بسبب وجهة الحديث وسذاجة الفتاة.

- انه يحبني غير انه لا يعرف ذلك ولكني اعرف. المرأة تحس بذلك. الا توافقينني؟

- آسفة. لا ادري لأنه لم يكن لي وصي عليّ في حياتي.

- ألم يكن لك شاب صديق؟

- كلا. كان لي معارف فقط.

- يا للعار. كان لي العشرات منهم. كنت في مدرسة في انكلترا وكان الأولاد كثراً.

تنهدت الفتاة بحزن.

والآن ليسوا في متناول يدي... ولن يسمح لي ماكس لأنه يصر على ان يكون الأوحد.

لبّها. وتحسرت اسى بسبب موقف ماكس الذي تابع كلامه عن مناسبة اخرى كادت امه فيها تقع ضحية عملية احتيال لولا تدخله في حينه. صدقته بني ولكنها لم تصدق ان امه بالبساطة والسذاجة التي يلصقها بها. ولكن قصته التالية جعلتها تنتفض وتنتبه لكل كلمة تخرج من فمه. قال ان عدة رجال تقدموا للزواج من أمه ومرة اخرى انقذها تدخله من استغلالات كانت ستقع لا محالة. هنا تسارعت نبضات قلب بني وهي كلها آذان تستمع اليه وتلاحظ كيف كانت شفتاه تتلويان من الاشمئزاز والازدراء عندما قال:

- كل أرملة ثرية هدف لكلاب البحر الذين جل همهم مالها وليس . . .

- لا اوافقك على هذا! قالت بني متسرعة ونظر اليها ماكس متسائلاً عما ستقوله:

- ليسوا كلهم سواء. بعض الرجال يهتمون بها كانسانة دون أي اعتبار لمالها.

- ممكن، ولكن غير محتمل.

- انت شكاك يا سيد ردفيرن.

- انا شكاك في امور مثل هذه، وكما سبق وقلت ان الارملة الثرية هدف لكل كلب بحر. لحسن الحظ والدتي تصغي لنصائحي، وهذا وفر عليها متاعب الوقوف في حبائل المحتالين.

- لكن. . . لكن. . .

كادت بني تعبر له عن مخاوفها. هل ستتأثر السيدة ردفيرن برفض ابنها فلا تتزوج؟ تعلم ان نورا تهتم بوالدها كثيرا ولكن لماذا طلبت من بني الا تفاتح ابنها بهذا الامر؟ وهذا يعني انها قد تنصاع لتحذير ماكس. الا انها قالت:

- لنفترض ان رجلاً احبها لشخصها هي، هل تمانع في زواجها؟

تنبّه ماكس الى القلق في صوتها واخذ يفكر، وفي الحال خفضت بني عينيها لتخفي شعورها.

- شيء واحد يثبت انه يحبها لنفسها اذا كان يملك ثروة هو الآخر. وبعكس ذلك يكون حبه لمالها وليس لها.

- اظن السيدة ردفيرن حرة في تقرير مصيرها.

- والدتي ذات حساسية وتعرف نقائصها، كما تعرف ان كل رجل يعرض عليها الزواج يريد ثروتها فقط. ولهذا وعدت بألاّ تتزوج دون. . . دون موافقتي.

كم هو مغرور بنفسه! غلى الدم في عروقها ولكن ليس لديها حيلة. فالزواج لن يعقد الآن. وماذا تقول عن والدها الذي ينتظر حتى نهاية الشهرين المتبقيين لتقاعده كي يأتي الى خطيبته ويعقد قرانه عليها؟

استأنف ماكس أكله وتناول الرسالة وأخذ يتفحصها ثانية. وبعد برهة بقيت بني وحدها بعد ان اعتذر ماكس وأخذ طريقه الى بيت منخفض رمادي اللون يمكن ان يكون مكتبه. ارادت هي الاخرى ان تذهب عندما اوقفها مشهد جميل لفتاة جميلة تمشي كالغزال متجهة نحو مائدة الافطار.

- أوه. . . أين ماكس؟

قدّرت بني عمر الفتاة بسبعة عشر عاماً.

- ذهب الى ذلك البناء.

لكن الفتاة لم تتحرك وظلت تنظر الى بنّي بينما تفحصتها هذه بسرعة وخفية. كانت رشيقة القوام شقراء ولها عينان زرقاوان ووجه متكامل وشفتان مستديرتان تفترّان عن ابتسامة سحرية.

- انت الآنسة دافدسون؟ قال لي ماكس انك ستمكثين هنا. ما هو شكل والدته؟

جلست على كرسي ماكس وقالت:

- اني ارهب مقابلتها فتظاهرت بالمرض ولزمت الفراش. وعندما ارسل ماكس تريزا لتتأكد من اني نهضت، تظاهرت بالنوم. كيف هي؟

- انك تعرفين اسمي. هل لي ان اعرف اسمك؟

دهشت قليلاً لهذا السؤال لكنها قالت:

- شيرلي. ماكس وصي عليّ، الا تعلمين ذلك؟

- وصي عليك!

ماكس هو آخر شخص تتصوره وصياً على فتاة صغيرة كهذه. وتابعت بني كلامها:

- كلا، لا اعلم بذلك. لم تذكر لي السيدة ردفيرن بأن ابنها وصي على أي كان.

٢ - الرعشة

أمضت بني ورئيستها اسبوعين في عبور الجبال والاودية كانت اثناءهما تدوّن الملاحظات والسيدة ردفيرن تجمع نماذج من الصخور والأتربة تحملانها في اكياس على ظهرهما وتعودان بها الى مركز عملها. اذهلت السيدة ردفيرن بقوتها ونشاطها. فقد كانت تعمل بلا كلل وكثيراً ما كانت تذكرها بفوات الوقت لكي تعودا ادراجهما الى المزرعة التي تعرف باسم الصخور المرجانية.

- سيدة ردفيرن، سيلحقنا الظلام.

كانت بني تنبه رئيستها وهي ما تزال جاثمة على ركبتيها تنبش في التراب او تفحص قطعاً من الصخر تحت عدسة مكبرة، او تحثها على الاسراع كيلا تضلا الطريق في الادغال. وبالفعل تأخرتا في احدى الامسيات وسط منطقة حرجية معروفة بغزارة أمطارها وبظلامها الدامس.

- نحن في ورطة.

تمتمت السيدة ردفيرن وهي تنظر حوالبها كمن يتوقع حدوث معجزة تعيدهما الى البيت.

كانت تحمل كيس الحجارة على ظهرها فاصرت بنيّ على ان تحمله هي.

- لا أدري كيف تتسنى لنا العودة. ما علينا الا ان نبدأ في السير علنا نجد مخرجاً.

- توغلنا كثيرا في الدغل.

قالت بني.

- كان يجب ان تذكريني. تعرفين انني انسى حالي.

- ذكرتك يا سيدة ردفيرن.
- لماذا تنادينني بالسيدة ردفيرن؟ ناديني نورا كما في السابق.
- عملت ذلك نزولاً عند طلبك.
- فقط امام ماكس، وليس عندما نكون وحدنا. لا احب الرسميات.
- قد انسى ذلك مع عادة تسميتك بنورا طيلة الوقت.
- يجب ان تعتادي على ذلك. انا لست السيدة ردفيرن كل الوقت.

لم تقل بني شيئاً. وكانت كلتاهما تتخبطان في سيرهما في الوحل عندما ارتطمت رجل بنيّ بجسم لين ولزج، وأحست بضربة الجسم على رجلها وصرخت وهي ترتعد:

- أفعى! أتوجد أفاع في هذه المنطقة؟

قالت ذلك وهي تتوقع لدغة الافعى في كل لحظة.

- دعيني أفكر قليلاً. لا توجد أفاع هنا. ولكن توجد ثعابين. . .
- ثعابين؟ الثعابين الخانقة أي البوا؟

لم تعد بني تتوقع لدغة أفعى بل التفاف الثعبان حول جسمها والضغط عليه حتى الاختناق. وتذكرت ان ماكس كان قد حذرها من مخاطر هذه التنقلات ولم يأتِ على ذكر الافاعي. شعرت انها تثق فيه رغم نفورها منه. ولذا اطمأنت الى عدم وجود الافاعي.

- نعم، توجد هنا ثعابين خانقة ولكنها غير مؤذية على ما اظن. . . تنبهي يا بني، نحن نتوغل في كثافة الدغل بدلاً من ان نخرج منها. هل تعتقدين اننا ضللنا الطريق؟
- لا اعلم، فقد فقدت كل حس بالاتجاه. هل الثعابين مؤذية؟
- انها تنفر من الانسان وتتجنبه. انا أكيدة من ذلك، فلا تقلقي.

ابتسمت بني لأن نورا لا تبالي اذا كانت الافاعي خطرة او مسالمة.

كانت تتوغلان في الأدغال بمرور الوقت حيث كثافة النباتات تعيق سيرهما.

- لقد ضعنا. بدأ الخوف يتسرب الى قلب بني، واحست بالكيس على ظهرها كأنه من رصاص. ونسيت نورا ان تخفف عنها وتحمله بدورها.
- أتعلمين يا عزيزتي انني بدأت اشعر بالخوف، أنا التي لا يجد الخوف سبيلا الى قلبها؟ ويقول حسي اننا سنمضي ليلتنا هنا.

- ارجوك، لا تقولي ذلك. يجب ان نجد لنا مخرجاً.

لكن المنطقة بأسرها كانت كلها غابات كثيفة من شجر الخيزران والنخيل والارز.

- ماذا نعمل؟

سألت بني مذعورة قليلاً.

- لا يمكننا البقاء هنا حتى الصباح! هل نستريح قليلاً؟

كانت تعبة تحت ثقل الكيس على ظهرها.

- كلا يا بنيّ. يجب ان نتابع سيرنا. انا متأكدة من اننا في الاتجاه الصحيح . . . في كل الحالات سننفذ الى طريق ما حتى لو كان هذا الطريق في الجهة الاخرى من الجزيرة.

- لا استطيع اكثر من ذلك. يجب ان أتوقف.

كادت بني تجهش في البكاء. ورمت الكيس من على ظهرها على ارض المستنقع عند قدميها. كان رأسها يؤلمها كثيراً والعرق ينصبب من وجهها. كما ان ثيابها كانت مبللة ولكن البرد اخترق جسمها حتى العظم.

- كم من الوقت مضى علينا هنا؟

سألت بني.

- أظن اكثر من ثلاث ساعات. ليتك نبهتني الى الوقت يا بنيّ لكنا الآن في طريقنا الى البيت. تمنيت لو انك فطنت الى الوقت.

نسيت نورا مرة اخرى ان بنيّ أكدت لها انها نبهتها الى الساعة في حينه. ولم تعلق بني اذ لا فائدة من ذلك. رأت ان السكوت أفضل. فهما تجهلان نقطة وجودهما وما عليهما غير انتظار انبلاج النهار كي تعرفا وجهتهما.

- هل استطيع تفريغ الكيس؟

سألت بني نورا متوسلة.

- نستطيع جمع غيرها مرة اخرى.

- اتريدين التخلص من نماذج مدهشة كهذه؟ بحق السماء لا! من الصعب ان نصادف نماذج بجودتها. يجب ان نأخذها مهما كلف الأمر، وسنوفر علينا شهراً كاملاً من التنقيب. فسأقوم انا بالبحث وانت بطباعة بحثي، الا ترين ذلك يا عزيزتي؟

وبالرغم من ان موضوع نقاشهما كان الكيس وما فيه، لم تفكر نورا ان تساعد بني في حمله. ورأت بني نفسها مرغمة على رفعه الى ظهرها. ومع تبلل ثيابها واحتكاك حزام الكيس بجلدها احست ان جلد ظهرها وكتفيها بدأ ينسلخ والدم يسيل منه.

تملكهما اليأس من ايجاد طريق قريب فجلستا على شجرة ملقاة على الارض.

- حاولي ان تستريحي يا بنيّ. . . الطقس بارد ولكنك لن تشعري به اذا لم تفكري فيه.

منطق معقول ولو ان النعاس كاد يقتلها.

- لا استطيع ان انام. هل تظنين ان ماكس. . . أعني السيد ردفيرن سيكون قريبا يبحث عنا؟ انه يعرف اي طريق اتخذنا لانه يسألني كل صباح.

- صحيح؟

تثاءبت نورا ثم أضافت:

- لا تناديه السيد ردفيرن. لا أحبذ الرسميات بينك وبين بنيّ

- لكنه رسمي معي.

كان حلقها جافاً والكلام يؤلمها.

- قد يرسل ماكس بعضهم ليبحثوا عنا، خاصة وانه يعرف وجهتنا بناء على معلوماتك له.

غطت نورا في النوم وعلا شخيرها، واشتهت بنيّ ان تحاكيها في قبول الأمر الواقع والاستسلام.

كانت الثانية صباحا عندما وصلت الى اذني بنيّ أصوات تنادي بدون توقف، بينما كانت نورا تغط في نومها. اجابت على النداء وتجاوبت النداءات وعندها فقط أفاقت نورا من سباتها وقالت جذلة:

- نحن محظوظتان يا بنيّ. من هناك؟

- سمعت صوت جان باتيست ينادينا. ربما يرافقه غيره من عمال المزرعة. . . نعم. هذا فليكس يصرخ لنا - ردت عليه بني وتراءت لها الآن نقاط أضواء المشاعل تتلألأ بين اغصان الشجر.

- شكراً لله. كم سعيدة انا برؤياك يا ماكس!

هتفت نورا بعفويتها المعروفة عندما برز ماكس من بين الاغصان

المشابكة.
كان كل اهتمام ماكس منصبا على والدته. ورأت بنّي ان هذا شيء طبيعي.
- انا بحالة جيدة يا ماكس، جيدة جداً. لكني ارى ان بنّي متعبة. اليس كذلك يا عزيزتي؟
التفت ماكس نحو بنّي ورفع المشعل في وجهها فبهر عينيها. وبالرغم من انها لم تستطع ان ترى وجهه الا انها تصورته حانقا غاضبا. لكن لماذا يغضب؟ قد يساوره القلق والغم حيال وضعها، ولكن الغضب؟ كلا، ربما كان هذا من نسج خيالها.
- أبك شيء غير التعب؟
سألها ماكس بحدة.
- أنا في احسن حال.
- ماذا حدث؟
- تأخرنا في عملنا بدلاً من ان نرحل في ساعة مبكرة.
هبت ريح واخترقت ثيابها المبتلة فارتعشت من البرد.
- هذا ما حذرتك منه.
قال محتداً من الغضب.
- أفهمتك بصراحة ان احد واجباتك الرئيسية هو تنبيه والدتي عن الوقت والساعة. اني اعرف اساليبها. فهي تنسى حالها وهي غارقة في عملها. لماذا لم تتبعي نصحي؟
- ربما كنت انا المخطئة.
قالت نورا.
- هل ذكرت لي الوقت يا بنّي؟ لا أتذكر.
- ذلك لا يهم الآن...
- بل يهم كثيرا. لا احب ان يلومك ماكس اذا كان الخطأ خطإي. ولكني لا اعتقد انك نبهتني اليه.
- ارى ان نرجىء التحقيق لوقت آخر؟
قال ذلك وتناول ذراع والدته.
- جان، اهتم بالآنسة دافدسون.

- نعم يا سيدي. سأعتني بها.
- الكيس يا جاك. ها هو...
- نعم يا آنستي. سأحمله. انه ثقيل عليك.
كان سيرهم بطيئاً وصعدوا الى سيارات الشحن عندما وصلوا الطريق. كانت الرابعة صباحاً عندما دخلوا المزرعة حيث كانت تريزا تنتظرهم لتقدم لهم شراباً ساخناً.
- سآخذ شرابي الى غرفتي. طابت ليلتك يا ماكس. طابت ليلتك يا عزيزتي بنّي.
- يمكنك الذهاب يا تريزا.
قال ماكس.
وذهبت تريزا بعد ان كشفت ابتسامتها العريضة عن اسنان بيضاء لامعة وقال لبنّي بصوته الجاف:
- تناولي شرابك. فرفعت بنّي فنجانها الذي كان يتصاعد منه بخار الشوكولا الساخن.
كانت منهوكة القوى تشعر بألم شديد في كتفيها. وقد تنفجر باكية اذا ضايقها ماكس بكلامه الممضّ. فقالت لتسدّ عليه فرصة الكلام:
- سآخذ فنجاني الى غرفتي. انا ممتنة لك يا سيد ردفيرن لمجيئك الى الدغل.
- لا حاجة بك لتعبري عن العرفان بالجميل. هذا شيء طبيعي. أريد منك فقط ان تكوني حريصة في المستقبل.
- طابت ليلتك.
كان جسمها متعباً لدرجة انها لم تقو على التفوه بكلمة احتجاج. ولكنها قالت فقط انه يجب ان تنقل الكيس الى المكتب. فوضعت فنجانها على الطاولة وانحنت لترفعه، لكن ماكس سبقها اليه ورفعه. وقطب حاجبيه عندما شعر بوزنه الثقيل.
- هل كنتما جادتين بتحمل مشاق نقل هذا، لماذا لم تتخلصا منه؟
- انها نماذج مهمة لأبحاث السيدة ردفيرن.
أعاد ماكس الكيس الى مكانه وهز كتفيه قائلاً:
- سأنقله الى المكتب فيما بعد. اذهبي لتنامي...

لكنه توقف عن الكلام فجأة وعبس عندما لاحظ حالة منكبيها. فقد شاهد بقع دم على ثوبها ولاحظ كيف تلوّت من الألم عندما تحركت لتمشي.

- هل جرحت؟ كيف حدث هذا؟

تقدّم منها بوجه واجم لم تر بني فيه دليلاً على الشفقة. ونمّ كلامه على عقاب اكثر منه على استيضاح.

- حزّ حزام الكيس في جلدي. سيتحسن حالي عندما استحم.

- دعيني ألقي نظرة على جرحك: قال ذلك بهدوء لم تعرفه فيه وتناول الفنجان من يدها.

- ترى جرحي؟ أنت؟

لم تصدق بني ما سمعت.

- لا يوجد غيري ليراه ويجب الاهتمام به فوراً.

لكن. . . هل يريد منها ان تخلع سترتها؟

- شكراً. سأنظفه بنفسي. عندي في غرفتي ضمادات وغير ذلك. . .

- لا تكوني معقدة.

قال آمراً.

-فكّي سترتك لأفحص جروحك.

وقف ماكس ينتظر وفي عينيه حزم لا تراجع فيه. وتعلم بنّي جيداً انها اذا مانعت في ذلك فلن توقفه قوة لأن يفك أزرارها بنفسه.

- قلت اني سأنظفه عندي في الغرفة.

لكنها رأت نظرته وخطوط العزم في وجهه.

- يا آنسة دافدسون.

قال فاقداً هدوءه:

-شيء واحد لا أتحمله هو الجدل التافه. أرجوك ان تفعلي ما اطلبه منك!

ترددت قليلاً ثم ادارت ظهرها له وبدأت تفك أزرار سترتها عن غير رغبة منها. وبكل حرص اخذت في نزع سترتها عن كتفيها، وكانت تئن قليلاً كلما فصلت ما كان ملتصقاً بجلدها.

- يا للسماء، ما هذا؟ ما الذي أجبرك على حمل هذا الكيس طالما كان يؤلمك؟ ما أحمقك!

وبدون أي تحذير او اعتبار انتزع حمالة التنورة بحركة مفاجئة واحدة

آلمت بنّي، فطفرت دمعة من عينها وصرخة ألم من فمها.

- كنت آلمت نفسك أكثر بكثير لو قمت بهذا العمل بنفسك.

كان في صوته نغمة تأنيب ممزوجة بشيء من القسوة ارادت بني ان تحاسبه عليها لولا انه تكلم ثانية:

- يلزمك مطهر. اجلسي ريثما آتي بقليل منه.

جلست بجانب الطاولة وكان الدم ينزف بشيء من الغزارة وكانت تحس بسخونته على ظهرها. اسندت رأسها الى الطاولة طلباً للراحة رغم الألم الذي تسببه لها جروحها.

رفعت رأسها عندما سمعته يدخل حاملا وعاء فيه ماء ساخن في يد وفي اليد الاخرى صندوق اسعاف أولي. بدا لها هائلاً بقوامه وقاسياً بشفتيه المطبقتين ونظرته الحادة. شعرت بني بأنه غاضب عليها بسبب المتاعب التي سببتها له.

غسل جراحها وصب المطهر بغزارة وكان يسحب نفسا طويلا ليدل على عدم رضائه كلما خرجت منها صرخة ألم. كان قلبه خالياً من أي احساس بالرحمة او الشفقة.

- ستغير تريزا ضماداتك غداً. انها ماهرة جداً.

وبينما كان يلف الضمادات حول كتفيها صدف ان لمست يداه جلدها فارتعشت قليلا واحس هو بهذه الرعشة فسحب يديه فوراً فتكدرت من نفسها لأنه شعر بذلك. قال لها بانها تستطيع ان تزرر سترتها بعد ان اعاد حمالات تنورتها الى مكانها.

- شكراً!

كان وجهها متورداً وتباطأت في الالتفات اليه. وعندما فعلت ذلك رأت ازدراء في عينيه.

- سأذهب الآن. طابت ليلتك يا سيد ردفيرن.

لم تنم بني بسبب الألم في كتفيها وكانت طوال الوقت تفكر بالشعور الغريب الذي أحست به عندما لامست يداه جلدها. هذا ليس شعور اخت لأخيها. . .

كما قالت السيدة ردفيرن، لم تخرجا للتنقيب، وكان عمل بني خلال بضعة اسابيع مريحاً نسبياً، مع فترات استراحة اثناء العمل تليها عطل نهاية

الاسبوع. كانت تبتعد عن المزرعة لتذهب تسترخي على الشاطىء، وتتمتع بشمس الجزيرة، او تجوب الجبال والوهاد حيث شلالات الماء والاحراش والازهار البرية الزاهية.

- أين سيكون تجوالك اليوم يا عزيزتي؟

كان ذلك يوم سبت وكان جميعهم يتناولون الافطار معاً.

- اعتقد انك استكشفت كل الجزيرة الآن.

ابتسمت بني وقالت:

- ليس بعد. اني افكر في زيارة البحيرة العالية. اني لاتساءل، هل يغلي الماء فيها؟ وسأتغيب هذه الليلة. أتمانعين في ذلك؟

وجهت بني السؤال الى نورا ولكن شيرلي تكلمت قبلها:

- هل استطيع ان ارافقك؟ لا اعرف البحيرة ويقولون انها جميلة.

- سنذهب جميعاً الى هناك.

قالت ذلك ونظرت الى ابنها.

- في أي حال يجب ان اذهب الى هناك.

قال ماكس:

- لا استطيع هذا الاسبوع. لا يجب ان تذهبن بدون دليل... ويصعب جداً ايجاد دليل بهذه السرعة. تخلين عن الفكرة في الوقت الحاضر، وسأرتب ذلك في وقت آخر.

كان يتكلم بلهجة الآمر الواثق، ولكن بني لم تكن مستعدة لتلقي الأوامر من ماكس فقالت بكل هدوء:

- قرأت الكثير عن المخاطر يا سيد ردفيرن، وأعرف طريقي، وسأتناول وجبات طعامي في لودان وسأقضي ليلتي هناك.

كشف حزمها في الرد عن نيتها في تحدي ماكس. نظر اليها من طرف عينه وصك اسنانه ثم قال:

- لا أشك في انك قرأت عن المخاطر المحتملة يا آنسة دافدسون ولكن هذا لا يعني انك تعرفين طريقك. ان رحلتك ستأخذك الى أكثف جزء من الادغال الكثيرة الامطار، هذا عدا اللجوء الى العليقات المتشابكة التي تعترض طريقك. وبما ان ليس لدي اي رغبة في الخروج للبحث عنك ثانية، فسأكون ممتناً اذا أجلت رحلتك حتى تجدي دليلا يرافقك.

- أنصحك بان تاخذي بنصح ماكس.

قالت نورا ذلك لأنها رأت نظرة التحدي في عيني بني.

- ليس الامر مسألة نصح. لا اريد ابدا منكن ان تواجه اي نوع من المخاطر.

- اوه. لكن يا ماكس...

قالت شيرلي بغنج ودلال:

سنكون في أمان، وانا اثق في بني.

- لن تذهبا.

والتفت الى طعامه ظناً منه ان هذه نهاية النقاش.

- سأذهب وحدي.

قالت بني بتزمت وهي تنظر في عيني ماكس.

بدا عليه الذهول لأول وهلة ثم قال بصوت ناعم:

- ما دمت تعيشين في بيتي يا آنسة دافدسون، ستتبعين جميع رغباتي. لا اريد ان تذهبي بدون دليل. وهذا مسك الختام.

صعد الدم الى وجه بني وأحست بمذلة لم تعرفها في حياتها. ارتبكت نورا ولكن بني سكتت احتراما لها وهي لا تكاد تخفي غليان دمها. وزاد من خيبة أملها انها كلما جرى حديث بينها وبين ماكس يزداد النفور بينهما. وبعد ان كانت تتوقع ان تلقى ترحاباً من شخص قد يصبح اخاً لها، وجدت شخصا كريها، متكبرا، مترفعا ومعاديا.

في تلك الاثناء كانت شيرلي تحاول لفت انتباه ماكس اليها بحركات دلع الفتيات المراهقات. ولكنه لم يلتفت اليها مع انه ربما لاحظ حركاتها كما ظنت بني. انتهوا من الافطار في سكوت ثقيل. نهض ماكس وتركهن والتفتت نورا الى بني وقالت معتذرة:

- آسفة يا بني، لكن ماكس حريص. سنتدبر في ايجاد دليل وقد نذهب في الاسبوع المقبل...

- حسناً.

قالت بني موافقة ومحاولة كتم غيظها من ماكس.

وقالت شيرلي:

- هل سآتي معكما انا ايضاً؟ ارجوكما خذاني.

- بالطبع ستأتين، ولا اعتقد ان ماكس سيعارض طالما سيرافقنا دليل.
قالت نورا وهي تبتسم لها.

في وقت لاحق من اليوم نفسه بينما كانت بني في غرفتها دخلت شيرلي وجلست على السرير وسألتها عندما رأتها تسرح شعرها:

- فكرت في نزهة على الأقدام.

والتفتت بني الى شيرلي. وجدتها جميلة جدا، ومع ذلك وجدت ايضاً انه خلال الاسبوعين الماضيين لم تر ماكس يعير شيرلي حتى مجرد التفاتة. كانت معاملته لها معاملة وصي على قاصرة. ربما يرغب بالزواج من فتاة طيعة مثلها ولكن هذا امر آخر.

- لماذا لا تحبان بعضكما بعضا أنت وماكس؟

فوجئت بني بهذا السؤال وتوقفت عن تمشيط شعرها.

- ماذا تعنين؟

- كل شيء يدل على ذلك. انت لا تلاطفينه في حديثك معه ـ وواضح لي انه لا يحبذ وجودك هنا.

- صراحتك في غير محلها،

قالت بني وهي تنظر اليها نظرة خاصة.

- هل من عادتك ان تتكلمي دون لباقة؟

احمر وجه شيرلي خجلاً وقالت:

- آسفة، ما كان يجب ان اتكلم بهذه الصورة. ولكن ما يحيرني هو ان ماكس جاف نحوك مع انه لطيف. لطيف مع عماله ولم يتوان ابداً ان يأخذني في حمايته بعد موت والدي. اليس هذا جميلاً منه؟

- اعتقد كذلك.

- حاولت ان اكشف عن سبب عدم حبه لك...

توقفت قليلا وهزت رأسها:

ربما يعود ذلك الى الانقلاب.

- انقلاب؟

- انقلاب او تغيير مفاجيء في نمط حياته. ولا يحب العزاب اي اضطراب في هذا النمط.

نهضت شيرلي ووقفت امام المرآة.

- أترينني جميلة؟

وأخذت تميل رأسها في عدة اتجاهات لتتأمل وجهها من مختلف الزوايا.

- جميلة جداً. وأظن انك تعرفين ذلك.

صعد الدم الى وجه شيرلي عندما التقت عيناها بعيني بني.

- هل تعتقدين اني مغرورة؟

لم تجب بني على هذا السؤال بل قالت:

- يعرف معظم الناس شكلهم.

- وأنت... هل تعرفين كيف شكلك؟

تضايقت بني من هذا السؤال ولكنها قالت وهي تضحك:

- أعرف اني لست قبيحة. ومن جهة اخرى لا يوجد شيء خارق في مظهري.

- أراك جميلة.

اخذت شيرلي تبحث عن ردة فعل لدى بني:

وعندما أتيت الى هنا ذعرت.

- مم ذعرت؟

سألتها بني متلهفة لمعرفة جواب شيرلي.

- اعتقدت ان ماكس...

توقفت، ثم اردفت:

- لا شيء. انسي ما قلت.

وعادت شيرلي تنظر الى المرآة وقالت:

- ليت ماكس لم يكن بهذا البطء.

- هل هو بطيء؟

ضمت شفتيها كالطفل المدلل:

- انك تسخرين مني، اعتقد انك تظنينني حمقاء.

- كلا، صدقيني.

قالت لها بأدب جم:

لكن اخبريني عن بطء ماكس.

- بطيء في ان يكتشف بأنه يحبني. اني اتوق لسماع طلب يدي للزواج.

- هل أنت متأكدة من انه سيعرض عليك ذلك؟
- طبعاً . ألم اقل ان الاوصياء يتزوجون وصياتهم؟ سيتقدم بطلب يدي. . . ولكن متى؟
- تريدين الزواج بهذا العمر. . . صغيرة؟
- طبعاً. هذا يضفي عليك أهمية. يحترمك الناس اذا كان لك زوج.
- لكن ليس هذا السبب الوحيد في رغبتك بالزواج.
- احب ماكس. . . يجب ان اذهب لاشتري بعض الحاجات في روزو.
ذهبت شيرلي وبقيت بني تفكر في ملاحظاتها عن نفور ماكس منها. ماذا سيحدث عندما يأتي والدها؟ واتتها فكرة فنهضت وذهبت الى غرفة نورا.
دخلت بعد ان قرعت الباب وسمعت دعوة نورا لها بالدخول. كانت نورا مستندة بظهرها الى رأس السرير تطالع. التفتت نحوها وتمتمت بضع كلمات مديح عن مظهرها.
- نورا، ألا تعتقدين ان الوقت قد حان لاطلاع ابنك على خطوبتك لوالدي؟
لم تفاجأ كثيراً بهذا السؤال.
- سأطلعه يا عزيزتي في الوقت المناسب.
- سيكون والدي هنا بعد أقل من شهر. ولا اعرف ما اكتب له سوى عن الجزيرة وعن عملي. لم اذكر ماكس مطلقاً.
- لم تعتادي عليه بعد.
وضعت كتابها على السرير ونظرت في عيني بنيّ وقالت:
- أنت لا تحبينه؟
- هو لا يحبني. شيرلي نفسها لاحظت ذلك. . . وعلقت عليه منذ لحظات.
- شيرلي؟ صحيح؟ اذن فالنفور بينكما جلي يا بني.
وبعد توقف وجيز اضافت:
- أنت تجادلينه وهو له طرقه الخاصة.
- لست مرؤوسته ولن أتلقى اوامر منه.
لفت انتباه بني شيء بين اشجار النخيل. كانت ببغاء زاهية الالوان تحدق فيها من خلال النافذة. وكانت هذه الببغاء تأتي احياناً كثيرة وتبقى

ساعات في المكان نفسه.
- لا تنسي اننا ضيوفه. اني أقدر متاعبك ولكن ماكس يجب ان يطاع واعتقد ان كلامه هو نصح اكثر منه أوامر. واظنه على حق في محاولته ليثنينا عن رغبتنا في القيام برحلة الى تلك البحيرة بدون دليل.
تجاهلت بنيّ هذا الموضوع وتحولت الى موضوع والدها وموضوع اطلاع ماكس على الخطوبة.
- كلما تأخرنا في ذلك كلما شعرنا بالظروف تضغط علينا لاخباره. وبصراحة، فانه سيلقي علينا كل اللوم لأننا لم نخبره حتى الآن.
- انت محقة فيما تقولين ولكن لماكس أفكاره الغريبة حيال زواج ثان. . .
- أنت حرة في تصرفاتك. . .
قاطعتها نورا وشعرت بنيّ بخيبة أمل:
- أنا حرة طبعا ولكني لا اريد ان اقطع علاقتي بماكس بسبب هذا الزواج.
- ألى هذا الحد؟ لا اعتقد انه سيلجأ الى هذا التطرف.
- ربما لا. غير انه يرتاب في ان كل رجل يريد الزواج مني يريد فعلا الزواج من مالي. هذه هي حالة الاولاد يا بنيّ. كان ماكس شاباً يافعاً عندما مات والده وحل محله ونصب نفسه حامياً لي.
- والآن سيحميك من والدي.
فهمت نورا شعور بني بالمرارة وقالت:
- أنا اكيدة من ان ماكس سيحب جايمس عندما يتعرف عليه.
- اذن لماذا لا نخبر ماكس؟ متى ستخبره؟
- عما قريب يا بني. أعدك بذلك. انا اترقب الفرص.
اخذت بني تدرس هذا الموقف من جميع نواحيه فارتأت ان تتقرب من ماكس وتلين عريكته. بدأت أولاً بتفادي الدخول في جدل معه وان تكون اجوبتها لبقة وخالية من لهجات العتب او اللوم، وان تحاول استعمال الابتسامة حيث يلزم. والخطوة الثانية هو انها صممت على تجاهل عدم مبالاته بها، وعلى تجنب اثارة الشكوك في نواياها كي لا يرتاب في انها تود مغازلته.
فطن ماكس الى هذا التحول في بنيّ. وكان تجاوبه معها ضئيلاً جداً، الا

انه شجعها على الاستمرار في محاولتها. ففي مساء أحد الايام خرج الى الفراندا بعد تناول الشاي وفي يده كتاب. تناولت بني كتاباً وجلست على كرسي قباله. ولا تدري اذا كانت حركة التواء شفتيه طبيعية ام علامة استياء. حاولت بعد برهة من الزمن الدخول في حديث معه. ولما كانت أجوبته كلها ايماءات او مقتضبة عادت الى صمتها، وأخذت تجول بنظرها في الأفق فبهرها منظر غروب الشمس بألوانه المذهلة كأنها ألعاب نارية على الافق. جمدت في مكانها وثبتت نظرها كيلا تفوت عليها فرصة العمر في مشاهدة ذلك الوميض الاخضر الذي لا يرى الا اذا كانت السماء صافية.

كانت تتبع الشمس في اختفائها وراء الافق تاركة حولها لونا قرمزياً برتقالياً عندما وصلت الخط الفاصل بين البحر والسماء. وما ان غطست الشمس كلياً حتى برق في السماء وميض بيضاوي بلون الجليد. لم تعد تميز بين السماء والبحر اذ انهما اندمجا وكونا وحدة متكاملة.

تنهدت بني بعد ان أفاقت من هذا الحلم ونظرت الى ماكس. أدهشها وضعه قليلاً اذ انها رأته منهمكاً في النظر اليها بكليته. مع ذلك كله كان الجو متوتراً بينهما، بالرغم من رومانسية الامسية وجمال الطبيعة حولهما بازهارها الزاهية ونسيمها العطر وبأشجارها المحملة بالفاكهة والبراعم.

وقفت بني والارتباك ظاهر عليها وارتبط لسانها، وأيقنت والحزن يحز في قلبها انها فشلت في محاولتها.

- ما بك؟

سألها ماكس بصوته الجذاب:

- هل تتألمين من شيء؟

- شعرت بألم طفيف.

اجابت وهي تضع ثقلها على رجلها:

-يوجد ورم بسيط لا اعرف سببه.

مجها هذا الحديث وارادت ان تبعد عنه بأسرع ما يمكن فاخذت تمشي وهي تعرج قليلاً.

- ورم؟

مد يده الى المفتاح وأشعل النور:

منذ لحظة قلت انه من غير المستحسن ان تمشي حافية القدمين. هل

عملت بنصيحتي؟

- الحقيقة... مشيت بدون حذائي مرة او مرتين...

- تحبين التحدي. تخرجين عن طورك ثم ترتبكين. دعيني أرى الورم، اخلعي حذاءك.

استسلمت لارادته كي تتحاشىٰ الدخول في جدل معه.

- كما توقعت.

قال بغضب وهو يفحصها:

لماذا لا تتعلمين الامتثال لما يقال لك؟

- هل هذا الورم خطر؟

- يجب ازالته. جان باتيست خبير في امور كهذه ولكنه كان في عطلة اليوم ولا ادري اين اجده. سأقوم انا بهذا العمل.

- لكن ما نوع هذا الورم؟

كانت مضطربة وهي تلبس حذاءها.

- قلت لك ألا تمشي حافية القدمين بسبب البرغوث المندي الذي يخترق الجلد.

- صحيح انك قلت لي ألا اسير حافية القدمين ولكن لم تعطني السبب.

لم تر بدّاً من تصحيح خطأه والا لكانت احترمت ارشاده.

- النصح وحده كاف دون ابداء السبب. والآن وجد برغوث عشاً له في جلدك وملأه بيضا وهذا هو الورم، واخراج هذه الحشرة مع بيضها يتطلب مهارة خاصة كيلا ينتشر البيض في باقي انحاء القدم.

تركها ليعود بما يلزم وأخذت تتخبط ضاربة اخماساً بأسداس متسائلة عما قد يحدث لو انتشر البيض فعلا كما يقول. عاد ماكس ومعه اناء ماء ساخن ومطهر وضمادات، وابرة.

- ستتألمين قليلاً. اللطف لا ينفع معه.

أحست بألم شديد وكان وجهها شاحبا والعرق يتصبب منه عندما انتهى. ولكنه تمكن بمهارة فائقة من استخراج البيض مع البرغوث كاملاً.

وحذرها مرة اخرى قائلاً:

- اني لا اقدم النصح للتسلية. في المستقبل تقبلي ما اقوله لك.

- سأفعل ذلك. واشكرك لانقاذي منه.

وقفت على قدميها ولكن قدمها السليمة لم تحمل ثقل جسمها عندما استدارت على نفسها فارتمت الى الامام مادة ذراعيها للاتقاء فوجدت نفسها بين ذراعيه وصرخت:

- اوه... اني...

وبصورة عفوية عانقها وأراد الاستمرار في ذلك لولا ان بنيّ انتزعت نفسها من بين ذراعيه، لكن بعد قليل من التردد. وصرخت في وجهه:

- انت... انت كريه!

كانت عيناها جمرتين من نار.

- كيف تجاسرت على الاتيان بهذا العمل؟

- هوني عليك... لا معنى لاحتجاجك هذا.

قال وهو يضحك:

-كنت تتمنين هذا طيلة الاسبوع.

- انا؟ اتمنى هذا...؟

تطلعت فيه بعينين لا حياة فيهما:

- لأنهم!

كان كل جسمها يهتز اضطراباً ومذلة. ما عسى ان تقول والدته عن مسلكه المشين؟

هز ماكس كتفيه بعصبية كأنه اشمأز من حديثها. غير انه قال انها حاولت اجتذابه في مناسبة او مناسبتين. غلى الدم في عروقها ولم تعد تبصر شيئاً.

- اذن انت اعتقدت اني تمنيتك بهذه الطريقة؟ انت... انت مغرور بنفسك، متعجرف. انت حمار متكبّر!

وضربت الارض بقدمها غضباً.

- كنت لطيفة معك لاني اردتك ان تحبني كأخت لك... اخت، أتسمع؟ حتى اذا تزوج أبي من امك نورا...

رفعت يداً مرتجفة الى فمها لتمنع خروج المزيد من الكلمات، وآبت الى نفسها وهدأ غضبها. فتح ماكس فمه مذهولاً ثم قال بصوت خافت:

- ينوي والدك التزوج من أمي؟

تذكرت اتفاقها مع نورا بعدم البوح بأي شيء لماكس في الوقت

الحاضر. ما عسى ان تقول نورا؟

- ما كان يجب ان اذكر هذا.

قالت متوسلة وشفتاها ترتجفان:

-أرجوك، لا تذكر شيئاً لوالدتك. لم تكن تنوي ان تخبرك الآن.

- والدك...

قطب حاجبيه ودلت ملامحه على الغيظ والاشمئزاز:

-ومتى سيتم هذا الزواج؟

- سيتقاعد والدي بعد ثلاثة اسابيع وسيأتي الى هنا، ليعقد قرانه.

- عندما سيتقاعد؟ هذا يعني انه لن يعمل ليعيل والدتي اذن؟

لم تجب بنيّ ورفعت يديها الى السماء يائسة.

- ان سنه لا تساعده على العمل يا سيد...

لم تتم عبارتها. هل تناديه بلقبه ام باسمه الاول؟ لكنه لم يسمح بذلك الا بعد ان ترفع الكلفة بينهما.

- يملك والدي شيئاً من المال ولا يتوقع ان تعيله زوجته.

- لكن هذا ما يأمله والدك. ما نوع عمله الآن؟

وعندما اطلعته بنيّ عليه، قال:

- صياد آخر للثروات...

- انت مخطىء. لا يجب ان تقول شيئاً مثل هذا عن أبي. انه يحب نورا ونورا تحبه...

- كيف تعرفا؟

- انا عرفتها عليه.

- فهمت. آسف يا آنسة دافدسون. سأحبط مخططك هذا وتأكدي من انه لن يكون زواج بين والدك ووالدتي.

٣ - حوار في الفردوس

لم يغمض لبنيّ جفن تلك الليلة بعد الشجار بينهما. وكانت ما تزال مستيقظة عندما سمعت الجرس المعلق على شجرة المانغا. وهو يقرع ايذاناً ببدء العمل في مزارع الليمون التي ضمها ماكس مؤخراً الى املاكه. ويقرع احياناً تحذيراً باقتراب اعصار.

نهضت بني من فراشها واخذت تراقب العمال المحليين وهم ذاهبون الى العمل، وعلى رؤوسهم قبعات القش الواسعة، وكان منظرهم يجلب السرور الى القلب وهم ينشدون بلهجة البلد التي لا تفهمها.

ما عساها ان تعمل الآن! أولاً، انها تريد ان تنزل الى بركة السباحة علما منها بأن ماكس لم يمانع من قبل، وبذا ترطب قليلا من غليانها. وثانياً عليها ان تلين من موقف ماكس بالرغم من انه هدد باحباط كل محاولة للزواج. لا توافق بني على ادعائه بأن كل طالبي الزواج كانوا يطمعون في مال والدته، ولكنها تفهم موقفه من ذلك وتقدره. عليها ان تقنعه بان أباها مهتم بنورا لا بمالها.

كان المسبح في وسط حديقة استوائية يتصور المرء وهو فيها انه في وسط الادغال. وتحيط بالمسبح نباتات تفوح بأريج الأزهار العطرة، وعن بعد قليل يحيط بها ستار من اشجار النخيل الشامخة. والطريق المؤدي الى المسبح غني بالاشجار المزهرة على كلا جانبيه، كل شجرة منها تتباهى بجمالها ورونقها، والرائي يبقى مذهولاً بعناقيد البراعم والاوراق والأزهار المتموجة في الشمس كأنها جمر يزيد الغروب من وهجه الساطع.

خرجت من المسبح وجلست على حافته. ولم يطل بها الوقت حتى لمحت

ماكس بين الاشجار قادما نحو المسبح، وغطس في الماء دون ان يراها اذ كانت بين شجيرات كثيفة. وتبعته شيرلي وكانت جميلة جداً في لباس السباحة.

- أتيت لأتدرب يا ماكس.

ولمست الماء بطرف اصابع قدمها الصغيرة،

- أتسمح لي بالنزول الآن؟

- لقد أتيت مبكرة.

قال ماكس:

لم تعرف بني ان شيرلي تتلقى درسا يومياً في السباحة. وارادت ان تنسحب من هناك لولا انها سمعت شيرلي تقول لماكس:

- رأيتك آتياً فقلت في نفسي لا بأس من رفيقة لك. هل انزل الآن؟

سبح ماكس نحو شيرلي وامسك يدها وساعدها في النزول، ثم اخذ يدرّبها ويعطيها التعليمات. ورأت بنّي ان اهتمام ماكس بشيرلي اهتمام رجل مسؤول عن طفلة، وتصورت انهما لن يكونا زوجين متآلفين. ففكرة الزواج من خيال شيرلي فقط.

كانا الآن في الطرف الآخر من المسبح عندما حاولت بنّي ان تنهض فلحظتها شيرلي وصرخت من بعيد:

- ماذا تقولين عن سباحتي يا بنّي؟

- تسمّين هذه سباحة؟

اجابها ماكس.

- ولكني اسبح. احرك رجلي كما دربتني. . .

- هذا ليس كافيا. حاولي تركيز أفكارك.

- كيف استطيع ان اركز وانت عديم الصبر يا ماكس؟ اني احاول جهد طاقتي.

ورأت كيف تزّم شيرلي شفتيها تماما كالأولاد المدللين.

- حاولي جاهدة والا سأتوقف عن اعطائك دروساً بعد اليوم.

كان صوته قاسياً وحاداً:

-هذا يكفي اليوم. قال هذا متجاهلاً احتجاجات شيرلي. وسمعت بنّي صوت ماكس يناديها:

- الا تسبحين يا آنسة دافدسون؟

دهشت لهذه المفاجأة واحمر وجهها عندما رأته يسبح في اتجاهها. كان وجهه سمحاً لا أثر للوجوم او الازدراء فيه.

- أتيت مبكرة، حوالي السادسة وسبحت.

خرج ماكس من الماء وجلس بجانبها.

- لماذا؟ ألم تنامي؟

كانت لهجته عادية ويبدو انه نسي معاملته المخجلة مساء امس.

- ازعجك اعتراضي على الزواج. فستنسين ذلك. وهناك نساء غيرها لوالدك.

قالت بحدّة:

- افهمتك البارحة ان والدي يحب والدتك. مضت اثنتا عشرة سنة على وفاة والدتي لم ينظر خلالها والدي الى اي امرأة. انه ليس كغيره اياً كان رأيك فيه.

- لك مزاج حاد يا آنسة دافدسون.

- لم يكن لي هذا المزاج قبل ان ألقاك.

- تلومينني أنا؟

ادهشته عبارتها ولكنه كان هادئاً على غير عادة منه. ورأت بنيَ انها لن تكون على قدم المساواة معه حتى في هدوئه هذا الذي يجعله ايضاً في موقع اعلى من موقعها، وهو موقع امرأة شرسة حسب ظنها. فحاولت ان تهدىء من غليانها وتكلمت بصوت عادي لم يخل بعد من رجفة خفيفة:

- منذ البداية لم تكن معاملتك لي سلسة يا سيد ردفيرن. وفي عدة مناسبات كنت تستفزني عن عمد.

اتسعت حدقتا عينيه استغراباً ونظر فيها مدققا:

- يظهر ان لك خيالا واسعا يا آنسة دافدسون.

- على العكس. انت نفسك غير عالم بمواقفك المزعجة.

هنا عزمت بني ان تفرغ جرابها:

- لم تحبب الي منذ البداية ولا ادري لماذا، ولم تحاول ابدا اخفاء جفائك لي. ومن الصعب علي ان أصدق ان للسيدة ردفيرن ابناً مثلك.

شعرت بني ان عبارتها الاخيرة تعدت حد اللياقة وتوقعت ان يرد عليها

باحد منها ولكن حصل العكس من ذلك:

- اعتبرك فظة جداً يا آنسة دافدسون، ولو واتتني فكرة الأخذ بالثأر لوجدت نفسك في وضع لا تحسدين عليه. في كل الأحوال، بما اني اشعر بخيبة آمالك في فسخ خطوبة والدك فاني اتغاضى عن فظاظتك هذه. . .

- انت حقاً كريه!

واضافت وهي تقف حانقة:

- كيف يكون رد الفعل لديك اذا فسخ احد ما خطوبتك ووقف حائلا بينك وبين من تحب؟

رفع حاجبيه ترفعاً وفتح فمه عن ابتسامة كلها ازدراء:

- حيث انه لن يكون هناك اي احتمال ان اقع في حب احد، فان سؤالك ليس ذا قيمة.

حتى آمال شيرلي ذهبت ادراج الرياح بهذا التصريح. ولكن بنيّ لا تزال متأثرة بملامسة يديه عندما نظف جلد كتفيها المرة الاولى، وعندما اعتنى بقدميها المتورمة وخاصة مساء أمس.

لم يحول نظره عن عينيها وارادت تجنبه الا انها لم تستطع. وظل أثر الازدراء باقيا في شفتيه الملتويتين غير ان تعابير عينيه واسارير وجهه انفرجت بأعجوبة. . . تلاشت نظراته القاسية، تلاشت تجاعيده البشعة وحل محلها هدوء وابتسامة خفية. حرك هذا التحول المفاجىء شعوراً غريبا فيها مشوبا باضطراب غير اضطراب الخوف أو الحقد او الازدراء. بقيت نظراتهما متقاطعة، هو مسلطا عليها سهام بؤبؤيه وهي مأخوذة بها. تورد وجهها ورأت ذلك في عينيه وهالها ان تحس نشوته في انتصاره على مشاعرها. فهل ما زال يعتقد بأنها تغازله رغم انكارها الشديد؟ نعتته بحمار متكبر ولولا انشغاله بقضية زواج والدتها لكان صفعها او عاملها بطريقة مهينة لا هوادة فيها. اخيراً وجدت في نفسها القوة لتذكره بموعد الافطار.

- الآن، السادسة والنصف؟

كان واضحاً انه يضحك منها ويجد متعة في ذلك. وقف هو الآخر وكان تقريباً ملتصقاً بها. ودت لو انها تتمكن من اذلاله بالطريقة التي يذلها ولكن هيهات. . . وفجأة فوجئت بحركة من ماكس لم تتوقعها منه مطلقاً. مد لها يده وقال:

- لنتهادن مدة نصف ساعة ونسبح معاً.

كان كالبرج امامها بوجهه البرونزي ووراءه أندر ملكات الكريبي، فخر بورما، شجرة لا تضاهيها شجرة اخرى في العالم بألوانها القرمزية وبترتيب توزيع ازهارها. اتكأ بظهره على هذه الشجرة ماداً يده. زاد اضطرابها وهي تتقدم نحوه واضعة يدها في يده.

- راقبتك جيداً.

قال لها.

- سباحتك ممتازة.

- شكراً.

كلمة لطيفة خرجت بصوت لطيف دل على شرود في الذهن.

ومن المضحك المبكي ان تكون نتيجة جهودها طيلة اسبوع كله جدل وشجار هدنة مدتها نصف ساعة، والهدف منها السباحة.

ظل قابضا على يدها وهما يسيران نحو نقطة اطلقوا عليها اسم الشاطىء الاصطناعي. كان المتكلم معظم الوقت ماكس اثناء السباحة، وبعد ان خرجا، قال:

- فلنجعل من ذلك موعداً ثابتاً. مهما تشاجرنا او اختلفنا سيكون ملتقانا هنا السادسة من كل صباح.

كان ذلك بياناً اكثر منه طلباً، ولم يلتفت اليها على اساس ان هذا الالتقاء مسألة مفروغ منها.

- عرفت انك تدرب شيرلي يوميا في هذا الموعد بالذات.

قالت بني مرتبكة قليلاً.

- شيرلي تأتي متأخرة عادة. هل حذاؤك هنا؟

- نعم. لا تقلق، فلن اسمح لتلك الحشرة اللعينة ان تتطفل داخل قدمي ثانية.

وبعد نصف ساعة كانا جالسين الى مائدة الافطار في ظل شجرة وارفة.

- لا ادري اذا كانت أمي ترغب في تناول فطورها في الفراش.

ونظر الى نافذة نورا، ولكنه لم يذكر اسم شيرلي التي لم تأت بعد. وأتت تريزا بفاكهة من انتاج المزرعة. لم تذق بني فواكه الاستواء من قبل مثل النارنج الهندي وغيره. كان فكرها منشغلا بقضية والدها وتجرأت وسألت

ماكس:

- هل ستطلع والدتك على الحديث الذي دار بيننا الليلة الماضية؟

- ان لي علما بالخطوبة؟ طبعاً.

- كلا. . . ارجوك.

اخذت تفرك يديها:

- دعها تخبرك بنفسها. ستغضب مني لأني جعلتك تعرف. كنت احثها لتقول لك ولكنها كانت دائما تؤجل ذلك لأنها تخشى. . .

قطعت بني كلامها لأنها كانت على وشك ان تقول شيئاً ربما اغضبه.

عقد بين حاجبيه وعادت اليه نظرته القاسية:

- تتوهين ان والدتي تخشاني؟

- انت قلت انها تسترشد بك.

اجابته بطريقة دبلوماسية:

- وتلكؤها في اطلاعك على خطوبتها هو شكها في مواقفك.

- تعرف والدتي اني لن اوافق مطلقاً.

قطع جوابه الطريق على بني وفضلت عدم الدخول في جدل كيلا تثير مشاهد كالسابق. وطلبت اليه فقط ان يتريث ريثما يأتي والدها فيتعرف عليه ثم يحكم. تشجعت بني عندما تغيرت ملامح وجهه مثلما تغيرت عند المسبح فقالت:

- ارجوك ان تنتظر حتى تطلعك هي بنفسها.

ولكن ماكس كان يهز رأسه قبل ان تنهي جملتها:

- في نيتي بحث هذه المسألة معها في أقرب وقت ممكن. لكن لا تخافي لاني سأؤكد لأمي انك اعلمتني بمجرد الصدفة.

قبلت بني بهذه النهاية. في كل الاحوال وضع وصول نورا حداً لحديثهما. كانت شيرلي معها لأنها ما فتئت تلازمها منذ بضعة ايام كي تكسب ودها آملة بأن تكون كنّة لها ذات يوم.

- هل تأخرنا؟ انا آسفة يا ماكس.

قالت ذلك وجلست.

- أين كنت؟

قال موجها سؤاله الى شيرلي:

- كنت اتحادث مع والدتك. . .
رفعت يدها وأنت تريزا لتلبّي طلبها.
- لا اريد اي فاكهة، فقط بيضاً مقلياً من فضلك.
- وانا اريد نفس الشيء.
قالت نورا.
- سآتي بطبق كامل واختارا ما تريدان.
بعد الانتهاء من الافطار انهمكت نورا وبنّي في عملها في المكتب حتى قرع جرس الغداء عند الظهر، وعندها قررت بني ان تسبق ماكس وتخبر نورا بنفسها وتعترف بغلطتها:
- اذن هو يعرف الآن:
عبست نورا في أول الامر ثم هزت كتفيها وابتسمت قائلة:
- كان علي ان اطلعه منذ زمن، لكنك وفرت علي هذا العناء.
دهشت بني لهذه النتيجة الحسنة ولكنها قالت:
- كانت زلة لسان وانا اعتذر. لكن ماكس ضد فكرة الزواج.
- هذا متنظر. آخرون سبقوا والدك وكانوا كلهم يجرون وراء الثروة.
- ولكن هل قبلت بأحد منهم؟
- لم أقبل ايا منهم يا بني ولكن بسبب قلبي اللين يخشى ماكس علي من الوقوع في براثنهم. سيرتاب في جايمس بادىء الأمر ولكنه سيطمئن اليه بعد ان يعرفه.
- تعنين انك. . .؟
لم تصدق بني ما سمعت:
انك لن تدعي ماكس يؤثر عليك؟
- سأتزوج من والدك يا بني، رضي ماكس ام أبى.
اجابتها نورا بجد لم تعهده فيها.
اصاب بني دوار في رأسها من صدمة المفاجأة. ورات درجة الحماقة القصوى التي جعلتها تعتقد ان كلمة ماكس لا يعلى عليها وهي كلمة الأمر والنهي.
- هل جادّة انت فيما تقولين؟
- بكل تأكيد. احب جايمس وانا موقنة من حبه لي.

تطلعت في بنّي باستغراب:
- ما الذي جعلك تظنين اني ضعيفة حتى اخضع لرأى ابني؟
- ترددك في اطلاعه على خطوبتك. . . خاصة في الأونة الأخيرة.
- كان في نيتي انتهاز اول فرصة مؤاتية لاخبره بذلك، ولكنني وهنت عندما رأيت ان نوعا من العداء قام بينكما منذ الوهلة الاولى. . . لا أدري سببه طبعاً.
لم تر بني ضرورة لسرد كل ما حدث، غير انها ذكرت كيف زل لسانها عندما تكلمت عنها، وذكرت اسم نورا مجرداً من اي لقب بدل ان تقول «السيدة ردفيرن» مما اثار حنق ماكس، اذ رأى في هذه التسمية الفة غير مستحسنة بين رئيس ومرؤوس.
- لا يلام على ذلك لجهله بالعلاقة بيننا ولاعتقاده انه قلة اعتبار لي كرئيسة لك.
- أفهم ان خلافي مع ماكس كان سبباً في كتمانك خبر الخطوبة عنه.
اشارت برأسها ايجابا وبعد تفكير وجيز قالت نورا:
- ليس السبب الوحيد. ولكنه عامل في صب الزيت على النار، وكنت آمل ان يروق الحال بينكما. وكنت انضايق جداً عند سماعي عبارات «السيدة ردفيرن، الآنسة دافدسون». انه لمضحك حقاً.
- ليس الخطأ خطأي.
- اخذ ماكس قوة الارادة عن والده وحب استملاك الغير والشخصية المترفعة. على الغير ان يطيعوا أوامره وان ينصاعوا لنصائحه.
رأت بني في نظرة نورا اليها ما تعنيه طباع وعادات ماكس. لم تر فارقاً بين امر يصدره ونصح يسديه وعلى الغير العمل به. استأنفت نورا كلامها قائلة:
- في المزرعة يكن له العمال اعتبارا كبيرا لأنه يعاملهم بالحسنى، اذا هم احترموا كلمته التي هي بمثابة شرع وقانون. لن يستطيع انسان التغيير من طباع ابني، واذا اجبرتك الظروف ان تحتكي به فعليك ان تتكيفي حسب تلك الظروف. . .
- هذا خضوع للتسلط، اليس كذلك؟ وبالرغم من لهجة التحدي كانت بني تفكر في استعمال الطرق اللبقة معه.

- لا يا عزيزتي، كلمة تسلط فيها مبالغة. ولا يستطيع ماكس ان يستبد بك، الا انه يتوجب عليك استعمال الليونة والتفهم، فترين ان كفة الصداقة بينكما سترجح على كفة النفور.

- لكن. . . أنا لست غير متفهمة يا نورا. لي ارادتي انا ايضاً، ولي رأيي، ولكن ماكس يفقدني صبري فكيف لا احاول صده؟

- صده؟

لم تحبذ نورا هذه الكلمة.

- يظهر انك تجدين الاشياء غير سلسة. تحبين الجدل. الم تجادليه عندما نصحك بعدم القيام بالرحلة الى البحيرة دون دليل، كان هدفك ان تذهبي لتتحديه فقط، وأرجو ان اكون مخطئة في ظني.

عضت بني على شفتيها واعترفت ضمناً بحقيقة هذا الواقع غير انها تعالت عن الاقرار به.

- بذلك تعنين ان كل اللوم يقع عليّ وحدي.

- كلا يا عزيزتي. لا اجزم بذلك لاني لا اعرف كل ما جرى بينكما. انت مترددة في تنويري وكذلك ماكس.

قرع الجرس ونهضت نورا وقالت وهي تفتح الباب:

- من سوء الحظ انك لم تكتفي بعد بجو القربى التي ستقوم بيننا بعد الزواج.

- صحيح ان الأشقاء الحقيقيين يتشاجرون. ولكني لست الملامة في كل هذا. وانت تعرفين كيف كنت متشوقة لاكتساب اخ لي وكنت اتوقع ان يشعر ماكس الشعور ذاته.

- لا اعتقد ان ماكس سيتحمس لأشياء مثل هذه.

هذا هو رأي بني ايضاً. حتى اذا سر ماكس بأن تكون له اخت لن يعتبرها اختاً. ستبقى بالنسبة له ابنة لزوج أمه. اضافت نورا تقول:

- بالرغم من كل شيء، عليكما ان تتسامحا وتتعاونا كي تقضي السنة المقبلة بانسجام مقبول وهدوء.

- سنبقى هنا ستة أشهر اخرى؟

سألتها بني غير مصدقة.

- حتى انتهي من كتابي. صحيح ان الكتابة يمكن ان تكون في اي

مكان، الا ان الشمس والبحر والمناخ الجميل هنا ستفيدنا افادة جلى. الا تعتقدين ذلك؟

- اوافقك تماماً. المكان فردوس جميل.

هذا ما كانت تتمناه بني. . . المكوث هنا مدة كي تتقرب من ماكس وتعرفه جيداً.

- فردوس حقاً. ويسرني ان اتقاعد عن العمل هنا، بعد بضع سنوات طبعاً. هذا اذا رغب جايمس في ذلك.

وصلتا الآن الى الباب وتنحت بني جانبا لتترك نورا تمر قبلها. ولكنها سألتها وقد أدهشها القسم الاخير من كلامها:

- هل سترضين حقا برغبات والدي، أي ستتقاعدين اذا طلب منك ذلك؟

- على المرأة ان ترضي رجلها اذا امكن ذلك. نعم، سأتوقف عن العمل اذا رغب جايمس في ذلك.

ذهبت بنّي الى المسبح في صبيحة اليوم التالي ووجدت ان ماكس قد سبقها. جلس كلاهما على حافة البركة وقال ماكس دون مقدمات:

- سبقتني الى والدتي لتوصلي اليها خبر زلة لسانك عن الخطبة.

كان صوته قاسيا ولكن جذاباً.

- نعم. اردت اعلام نورا بنفسي. لم يرق له استعمال كلمة نورا بدون لقب، ولكن بني تجاهلت هذا وتابعت كلامها:

- خشيت الا توضح لها ما فيه الكفاية فيقع اللوم علي.

كان ماكس يراقبها عن كثب. قال:

- وهكذا وضعت نفسك في مأمن من الملامة، ايه؟

- نورا مصممة على الزواج من ابي. كنت بلهاء اذ حسبت حساب تدخلك.

نظرت اليه لترى مدى تأثير هذه الكلمات فيه.

- قلت لك ان والدتي تحترم نصائحي ووعدت الاّ تتزوج دون موافقتي المسبقة.

- استعملت عبارة «موافقة»

ووقفت بني.

- اذا أردت الدقة في التعبير استعملت كلمة «سماح».
- وما الفرق؟
في تلك اللحظة بالذات برزت سحلية وتربصت لفراشة جميلة كانت تحوم حولها. وبحركة كالبرق اختفت الفراشة في جوف السحلية. تألمت بنّي لهذا المنظر وضحك ماكس قائلا ان هذه هي سنة الطبيعة وعلى الانسان الا يراقب كل شيء والا مات غماً. ولكن ماكس بهر بجمال عينيها اللتين كانتا تعبران عن الشفقة. ورأت بنّي ان السحلية لم تبرح مكانها وقالت بأن حيوانا آخر سيفترسها، أفعى مثلا.
- والآن تشفقين على السحلية. لا تخافي. ان أفاعي وحيات الجزيرة لا تأكل ذوات الدم البارد.
غطس ماكس في الماء وتبعته بنّي هادئة مطمئنة البال، شاكرة للسحلية التي قطعت عليها نقاشها الحاد. شعرت بجو ودّ وصداقة وكان ماكس يبتسم كلما اقترب منها او التقت عيونهما.
- لنقم بسباق حتى الطرف الأخر، وسأعطيك فرصة مسافة قصيرة تبدئين بها قبلي. اعلميني متى يجب ان انزل الى الماء.
جلسا ليستريحا على طرف البركة. ورأت بني ان كل ما حولها رومانسي. جمال الطبيعة، البركة الجميلة، السماء الصافية، النسيم العليل، ألوان النباتات، كل ذلك بالاضافة الى الهدنة القائمة بينهما. التفت ماكس الى بني وسألها شيئا هو آخر ما كانت تتوقعه منه:
- هل تجدين متعة في اقامتك على الجزيرة؟
هذه المرة الاولى يظهر ماكس فيه اهتماما ولو يسيرا بشخصها.
- الجزيرة جميلة جداً.
- ولكن الناس الذين عليها ليسوا كذلك؟ لم تجيبي على سؤالي.
- بل، احب هذا المكان كثيرا.
ارتاب ان يكون في صوتها شيء من الندم لقولها هذا فقال:
- لم تجدي هذا المكان حسب توقعاتك؟
لم تجب وتساءلت بينها وبين نفسها، هل قرأ افكارها؟
- في ذلك المساء أبديت ملاحظة افهم منها انك تريدينني ان اعاملك... كأخت لي. اخبريني يا بنّي، كيف كنت تتصورينني؟

- ناديتني باسمي الاول، بني.
قالت مندهشة قليلاً.
يبدو ان الجو اثر فيه.
- آسف، زلة لسان فقط....
- كلا، ارجوك.
تسرعت في الاجابة ولكنها تابعت:
- يسرني ان تناديني بهذا الاسم... دائما.
كان الواحد ينظر الى الأخر دون ان ترف له عين، ورأى هو تورد وجهها وحول نظره ليطوف به فوق جسمها ومن ثم يقول:
- سألتك اية صورة كونت عني في مخيلتك. كوني صريحة لأنك تعرفين اني خيبت آمالك.
- هل تحب الصراحة؟ ظننتك مثل نورا، لطيفاً و... و...
- لين القلب؟ لا عجب في اني خيبت ظنك. معاذ الله ان اكون مثل والدتي!
- انها طيبة ولطيفة.
اجابت بني على الفور غير مخفية غيظها:
- وساذجة وسليمة الطوية.
- أبي يحبها لشخصها ونورا مقتنعة كل الاقتناع بذلك. سيسعدان معاً.
- هل انت اكيدة من انهما سيتزوجان؟
- انك تكلمت مع والدتك بخصوص هذا الموضوع وبذا اصبحت على علم بعزمها على الزواج.
- فعلا، كانت امي مصممة وحازمة، ولكن امي ستحترم رأيي في نهاية الأمر.
لم ترد بنّي التعليق كيلا تدخل في جدل معه وبذا تخسر هذا التقارب.
- خيبت ظنك فيّ يا بني اذ لم تجديني ايه... طيبا... ولطيفا... اوه، وعطوفا. وما هي توقعاتك الاخرى التي لم تكتمل؟
لم يرق لها بريق السخرية في عينيه كما لم يعجبها التنويه الظاهر في كلامه.
هل هو مستاء من نفسه لأنه خيب ظنها؟ لا تعتقد ذلك، ولكنه ينتظر جوابها باهتمام بالغ.

كان أملي ان تستقبلني كأخت لك، وكنت مطمئنة الى انك ستسر بهذا الزواج الذي سيؤمن لوالدتك رفيق حياة يوليها كل عناية.

توقفت وهي تعي بأنه يتفحص بريق عينيها الشديد ثم قالت:

- اعتقد ان الرجال ينظرون الى هذه الاشياء من زاوية اخرى، لكن انا... بقينا انا ووالدي نعيش بمفردنا مدة اثني عشر عاما وكنت دائما اتشوق الى الحياة في وسط عائلة سعيدة.

كانت وهي في مجرى كلامها تفكر انه من التفاهة بمكان ان تكلمه بهذا الاسلوب عن حياتها الخاصة، غير انها رأت تغيراً في سحنته اذ بدا اكثر جدية. هل هي الطبيعة في هذا الفردوس الصغير؟ حتما، فهناك المسبح الذي تظلله اوراق الشجر بأبهة تفوق كل وصف، والنباتات الاستوائية التي تتدلى منها باقات من الأزهار القرمزية والذهبية. وفي الطرف الآخر من المسبح صخرة تغطيها اغصان وارقة من البنفسج والارجوان الاحمر الفاقع. ناهيك عن انواع الطيور بزقزقتها او تغريدها او صفيرها او حشرجة حناجرها ولون ريشها الذي لا يضاهيه الا لون الاشجار التي تحويها.

كانت بني سابحة في تأملها، منسجمة مع الطبيعة بل مندمجة فيها عندما دفعها حدس في داخلها لأن تلتفت اليه. رأت في عينيه نظرة غريبة جداً، نظرة كلها حنان وعطف، فأخذ قلبها ينبض بسرعة وهي تنتظر منه ان يتكلم.

- هذا مرامك في الحياة يا بنّي، ان تكوني جزءاً من عائلة...

- ماكس!

كانت هذه شيرلي آتية نحوهما وهي تقفز قفزات الغزال اللعوب. رأتها بنّي عن بعد في فستانها الأخضر والبرتقالي.

شهقت عندما وصلت لاهثة بشعر مشعث اضفى عليها جمالا فوق جمال.

- هل تأخرت؟ كان عليك ان ترسل في طلبي.

توقفت قليلا لتستعيد انفاسها.

- ساكون تلميذة ممتازة اليوم. سأجتهد كثيراً.

٤ - لقاءات شائكة

كان يوم السبت يوم السوق المكشوفة في روزو. اتجهت بنّي وشيرلي الى المدينة لتشتريا بعض الحاجيات. وكانت بني ترغب في الحصول على اشغال يدوية محلية مثل السلال والأصداف لترسلها الى اصدقائها في انكلترا. كانت السوق تعج بالناس، خاصة بالزنجيات اللواتي كن يلبسن قبعات عريضة جداً لتقيهم حرّ الشمس.

- اذا انا لبست قبعة مثل تلك، هل تلائمني؟

- انها تلائم اي واحد لبساطة شكلها.

لم تثر هذه القبعات اهتمام بنّي لأنها عادية وغير انيقة، اما شيرلي فقد ابتاعت واحدة لنفسها ولبستها.

- اوه، يا للصدفة الحسنة. اعتقدت اننا لن نلتقي ثانية.

- غراهام!

ابتسمت بنّي عندما استدارت لتتبع الصوت وتشاهد امامها الشاب الأنيق، رفيقها على ظهر القارب الذي اقلها الى الجزيرة.

- كم مسرورة انا بلقياك. اقدّم لك صديقتي شيرلي.

كانت شيرلي ترمقه بنظرات اعجاب ظاهر. كان لابساً طقماً من الكتان الأبيض وكان لون بشرته برونزياً وشعره الأشقر الذهبي المتموج متبايناً مع لون بشرته.

- لكنك لم تذكري اسم غراهام لنا مطلقاً.

مالت شيرلي دون ان تحول نظرها عنه:

- متى تقابلتما يا بنّي؟

- على ظهر السفينة.

قال غراهام غير عابىء بشيرلي: اتصلت هاتفياً مرة او مرتين وقيل لي انك كنت في الخارج.

- في الخارج؟ قالت بني بدهشة ظاهرة: من اجابك على الهاتف؟

- خادم يدعى ماثيو. هل ذكر لك اني اتصلت؟

- انه ينسى كثيراً. اعتقد انه نسي فور اعادة السماعة الى مكانها.

- ماذا تعملين هنا؟ هل السلال لك؟ (سألها وهو يشير الى سلتين كانت تحملها:)

- هذه هدايا سأرسلها الى انكلترا.

- اتحب قبعتي؟

مشمت شيرلي من اهمالها لها وتوسطت عن عمد بين بني وغراهام لتلقي سؤالها. دهش غراهام وتمتم كلمة استحسان ثم وجه انتباهه مرة اخرى الى بني.

- ما قولك في فنجان قهوة في فندق فورت بونغ؟ لي صديق مقيم هناك وله شقته الخاصة.

- جميل، ولكن الا نزعجه؟ ماذا تقولين يا شيرلي؟

- عظيم، ولمَ لا؟

- هل انهيتما من المشتريات؟

قالت شيرلي انها انتهت وبني انها اكتفت بما لديها. وتأبط غراهام ذراع بني واخذا يفتحان طريقهما وسط الجموع الحاشدة.

- اتمنى ان تكون هناك تشكيلة اكبر من مخازن الالبسة، تذمرت شيرلي بصوت حزين:

- ليس لدي ما يكفيني من الثياب.

- انت؟ عندك اكوام واكوام منها!

قالت بني بحدة.

- انها تبدو اكواماً في نظرك فقط. انا معتادة على اكثر من ذلك.

- شيرلي في وصاية ماكس.

قالت بني اجابة لنظرة استيضاح من غراهام.

- لم اعرف ان ماكس وصي على احد.

- كان والدي صديقاً لماكس. وتوفي منذ سبعة اشهر مضت واحتواني ماكس ليعتني بي. ولكنني عشت في انكلترا قبل ذلك وهذا سبب انقيادي لمحلات الأزياء.

- هل تحبين العيش مع السيد ردفيرن؟

سألها غراهام وهما يدخلان زقاقاً ضيقاً.

- ماكس... ؟ نعم.

- لماذا ترددت؟ الست متأكدة؟

- اوه، انه لطيف. على الأقل يلاطفني اكثر مما يلاطف بني.

- كيف؟ اليس لطيفاً مع بني؟

- كلا، انه لا يطيقها، اجبك يا بني؟

ارتبكت بني واحمرت خجلاً عندما التفت غراهام اليها. تذكرت ان غراهام اعطاها انطباعاً بأنه لا يحب ماكس عندما قال انه يأمل الا يخيب املها في اخيها الجديد.

- ان شيرلي تبالغ...

- لا ابالغ. ان ماكس لا يجامل بني البتة وهي الاخرى لا تجامله. انهما لا يتفاهمان.

- اهناك مشكلة يا بني؟

سألها بصراحة:

- الا تحبذ زواج والدك بوالدته؟ لم اقل لك شيئاً في حينه. اهذا هو سبب جفائه نحوك؟

- ان...

توقفت شيرلي على الفور لفرط ذهولها:

- بني، انك لم تعلميني بهذا.

- هذا شيء يخصنا وحدنا يا شيرلي.

التفت غراهام الى بني واعتذر لزلة لسانه قائلاً:

- بطبيعة الحال كنت اظن ان الكل على علم بذلك.

وتابع كلامه مرتبكاً:

- في كل الأحوال تتوقعين وصول والدك في القريب العاجل.

- في خلال اسبوعين.

- بأني والدك بعد اسبوعين؟ ولم يخبرني احد انه سيتزوج بوالدة ماكس. . .

كان كلامها عتباً لا تذمراً. ولما لم يأبه لها احد اضافت بصوت فيه شيء من التحبب:

- سيكون لي اذن حمو.

- سيكون لك حمو؟ ماذا؟ هل انت مخطوبة لماكس؟

كان سؤال غراهام سؤال استغراب لا سؤال استيضاح.

- ليس بعد، ولكنني سأتزوجه، أليس كذلك يا بنيّ؟

- انت تقولين ذلك.

كانت زلة لسان غراهام عندما ذكر خطبة والد بنيّ مزعجاً لها، اذ ان شيرلي ستعيد ذلك على مسامع ماكس وقد تسوء الأحوال بينه وبين بنيّ، ولذا اختصرت الحديث لقطع الطريق على ثرثرة شيرلي. ولكن هل من الممكن اقناع شيرلي بأن تضبط لسانها امام ماكس؟

كان فندق فورت يونغ يطل على ميناء روزو وغرفة تريفور صديق غراهام كانت في الواجهة الأمامية. سر جداً بلقائه بالفتاتين وخاصة بشيرلي التي اجتذبته.

- تريفور هو الآخر في المدرسة الرسمية.

قال غراهام بعد المقدمات:

- انه يدرّس علم الطاقة الفيزيائية اي طاقة الطبيعيات. ولذا فله طبيعة جسمانية ظريفة.

- شكراً لاطرائك.

قال تريفور وكله نظرات الى وجه شيرلي الجميل:

- اي نوع قهوة تريدون، عربية، فرنسية؟ حلوة او مرة؟

- هل تريد اية مساعدة؟

قالت شيرلي بصوت لهجته الطلب لا السؤال:

- اني احسن صنع القهوة.

- وانا كذلك. ولكن تعالي معي وساعديني.

وبعد ان اختفيا في المطبخ قال غراهام والاضطراب باد على وجهه:

- وجدت ماكس على عكس ما توقعت ولكن كما توقعت انا. لا اعرف

عنه الكثير، اعني شخصياً. ولكن كل من حوله ينظرون اليه بشيء من الرعب. صحيح ان عماله المحليين يجلونه الا انهم حريصون جداً لئلا يثيروا غضبه. ماذا حدث؟ هل رغبة امه في الزواج هي التي اثارت النفور بينكما؟

ترددت بنيّ قليلاً قبل الاجابة. ولما لاحظت ان غراهام كان متلهفاً لسماع اجابتها رأت ان تشرح له ولكن بلباقة، ودون ان يشعر انها اخفت عنه بعض التفاصيل:

- الم تخبره امه؟

- كانت تؤجل ذلك لفرصة مؤاتية لأنه كان هناك آخرون قبل والدي عرضوا عليها الزواج كما فهمت. انها تملك ثروة كبيرة وكل اولئك كانوا طامعين في مالها.

- هذا يعني انها تخاف ابنها.

هزت بني رأسها، وتابع هو:

- ما الذي باعد بينكما اذا لم يكن الزواج هو السبب؟

- الأمر بسيط. اعتقد انه لم يمل اليّ.

اجابت بحزن.

- لم يكن كما توقعت يا غراهام. فقط. . . لم يرحب بي كما كنت آمل.

- طالما كان يجهل كل شيء عن الزواج وصلة القربى التي سيقيمها هذا الزواج ما الذي منعه اذن من ان يكون مهذباً وودوداً، خاصة وانت امينة سر والدته؟

- لم يبد اي نوع من التهذيب فكيف الود؟

وقصت بني كل ما جرى بينهما ولكنها كتمت عنه حادث ذلك المساء عندما عانقها وكان عنيفاً نوعاً ما.

- كنت غبية منذ البداية. لم يخطر لي انه اكبر مني سناً، وانه رجل اعمال ذو مسؤوليات كبيرة وان شخصاً مثله لا يستقبل فتاة مثلي بذراعين مفتوحتين قائلاً اهلاً باختي الجديدة. لم اهتم في اول الأمر لأني كنت متحمسة لفكرة خلق اخ جديد لي. ومن المحزن ان يكون الشخص وحيداً لوالديه، ومجرد التفكير في ان والدي ونورا متحابان دفعني الى العيش في احلام السعادة.

- مسكينة انت.
ووضع يده فوق يدها.
- اشعر بالذنب لأني لم اعط النصح الكافي لكي تكوني متحفظة على الأقل عند قدومك هنا.
- الذنب ذنبي. توقعت كل شيء حسب رغباتي.
- وهذا كان من سوء حظك.
سمعا ضحكاً عالياً آتياً من المطبخ:
- ماذا سيحدث الآن؟ هل تفكرين ان السيدة ردفيرن ستصمد في وجه ماكس؟
- انها مصممة تماماً على الزواج من والدي، ولكن هذا سيتسبب في بعض المتاعب واكره ان يقع انشقاق بين ماكس وامه.
- لكنه عطوف نوعاً ما في ساعة سباحتكما اليومية.
- في تلك الساعة يصبح شخصاً آخر، ولكنه لم يعط الدليل على انه غيّر عقليته.
- حالة معقدة. ولكن لا اعتقد انه يعود الى جفائه وقسوته حالما يخرج من المسبح.
- بدأنا عادة السباحة منذ بضعة ايام فقط وقلما اراه اثناء النهار. كل منا منشغل بعمله وهو بصورة اكبر، خاصة بعد ان ضم مزرعة ليمون جديدة الى املاكه.
- بالاضافة الى مزرعة الموز؟
- نعم. اسرع في شراء المزرعة الجديدة لأنها ملاصقة لمزرعته. وهو قائم الآن على تجديدها لأنها كانت مهملة. وخارج السباحة نلتقي عند تناول الطعام.
سمعا رنات اخرى من الضحك ولم يخف غراهام انزعاجه.
- من هذه الفتاة؟
- كان ماكس ووالدها صديقين كما قالت لك. لا اعرف اكثر من ذلك لأن نورا لم تتحدث عنها كثيراً. ولكن يظهر ان والدها قدم خدمة محترمة لماكس فأخذها تحت كنفه بعد وفاة والدها.
- هل هو وصي شرعي؟

- اشك في ذلك، بالرغم من ان شيرلي تؤكده.
- وهل سيتزوجان؟ لا يعقل ان يتخذ السيد ردفيرن زوجة له فتاة رعناء مثلها.
- لي انطباع انها ليست رعناء كما تريدنا هي ان نتصورها. اما ما تقول من انها وماكس سيتزوجان فانه من نسج خيالها. ولا اعتقد ان ماكس يبالي بها في هذا الاطار الا اذا كنت مخطئة.
- لماذا تؤكد هي ذلك؟
- هذا يحدث في الكتب. الوصي دائماً يتزوج وصايته كما هو في كتب القصص. شيرلي رومانسية العاطفة كما اتصورها انا.
- اوافقك الرأي اذا كان هذا كل ما تتمناه. هل تعتقد هي انه سيقع في حبها؟
- اخشى ان تخيب آمالها اذا لم يتحقق خيالها.
- ليست من طينته.
- اكد لي ماكس انه من غير المحتمل ان يقع في حبها، ولكن من يدري؟
- هو قال ذلك؟ كيف وصلتما الى هذا الموضوع في حديثكما؟
بدا غراهام منزعجاً قليلاً وتعجبت بني لذلك:
- سألته اذا كان يحب ان يتدخل احد في خطوبته، وكان جوابه كما قلت لك.
- يعرف عنه انه الأعزب الأبدي. لا ارى ان اي امرأة تقبل بسطوته.
- سطوة من؟
كانت شيرلي واقفة بالقرب من مقعد غراهام، ويبدو انها دخلت دون ان يحسا بها. وتابعت وكانت تحمل صينية القهوة:
- عما كنتما تتكلمان؟ ما الذي فاتني من حديثكما؟
- والآن ماذا كانت المزحة؟
قال غراهام محاولة منه لتغيير اتجاه الموضوع.
- كانت مزحة حكاها تريفور. وضعت القهوة على المنضدة الصغيرة ثم عانقني.
- انتبهي من مغازلته فقد يحطم قلبك.
وهنا دخل تريفور حاملاً علبة البسكويت.

- يجب ان تخجل من نفسك.
- عمن كنتما تتكلمان؟
كررت شيرلي سؤالها:
- من هو الرجل ذو السطوة؟
قالت بني:
- هذا لا يهم.
ولكن شيرلي قاطعتها:
- اظن انكما كنتما تتكلمان عن ماكس.
اخذت شيرلي في صب القهوة ولم تتبين بني اذا كانت في حالة غيظ ام لا، ولكنها كانت تبتسم تلك الابتسامة الجذابة عندما رفعت رأسها.
- فرضاً لو كنا نتكلم عن ماكس...
لم يبال غراهام باشارة خفية تحذره.
- هل تعتقدين انه رجل ذو سطوة؟
- انه ... سيد الموقف.
ونظرت الى بني:
- اما اذا كانت هناك امرأة تتزوجه ام لا، فانا واحدة ستتزوجه كما قلت.
- تتنصتين وراء الابواب؟
رفع غراهام اصبعاً مؤنباً.
- الفتاة المهذبة لا تسترق السمع.
- ما هذه الضجة؟
قال تريفور موجهاً كلامه الى شيرلي.
- لم تقولي لي انك ستتزوجين يا شيرلي. من هذا الرجل المحظوظ؟
- ماكس، وصيّي.
قالت بكل هدوء وهي تقدم فنجاناً الى بنيّ:
- وسأدعوكما الى حفلة الزفاف.
- شكراً، ومتى سيكون ذلك؟
سألها غراهام مازحاً.
- هذا متعلق بماكس.
تعجبت بني من وثوق شيرلي في اعتقادها الراسخ بأنها ستتزوج ماكس لا

محالة. وبالرغم من كلامها وحديثها عن قلة وجود شباب تتعرف عليهم سمحت شيرلي لنفسها ان يغازلها تريفور، وتواعد كلاهما على الالتقاء في يوم معين.
- سنرقص هنا في الفندق، وعندما نشعر بالتعب نصعد الى شقتي للاستراحة.
انبسطت اسارير شيرلي ورمت تريفور باحدى ابتساماتها الخلابة. ولم يستطع غراهام على اثرها الا ان يغمز الى بني من طرف خفي.
خرج جميعهم من الفندق وكان تريفور وشيرلي يسيران جنباً الى جنب في المقدمة. فسأل غراهام بني:
- ماذا تقولين في موعد نلتقي فيه؟ هل انت طليقة في نهاية الاسبوع؟
- نعم، ولكن ما...؟
- قد نقوم برحلة ... الى البحيرة الغالية مثلاً؟
- يقول سام انه من الخطر الذهاب بدون دليل.
- هراء. اعرف طريقي. هل ستأتين؟
- احب ذلك. الا ترى انه يجب ان يكون معنا دليل؟
رغم تحذيرات ماكس ووالدته، لم تكن بني ترى مانعاً من الذهاب اذ انها تمرست في الأراضي الوعرة والادغال بحكم عملها، وكانت واثقة انها تستطيع الذهاب بمفردها خاصة ان غراهام يريد مرافقتها، مما جعل الأمر اكثر سهولة.
- بعض الناس يحتاجون الى دليل. لم استعمل واحداً في حياتي.
- حسناً... اذا كنت متأكداً من اننا لن نضل طريقنا.
- لا تخافي.
وهكذا تمّ الاتفاق بينهما ان يتقابلا صباح السبت المقبل فيبدآ المسيرة وفي طريقهما يزوران مكاناً او مكانين لهما اهميتها.
استقلت بني وشيرلي سيارة تاكسي لتعودا الى البيت. وكانت طريقهما وعرة تسير في محاذاة الشاطىء على ارتفاع قليل في سفح الجبل. كان شعر بني يقف من الرعب كلما اطلت من نافذة السيارة. ولكنها اعتادت على المرتفعات المدوخة والمنعطفات الحادة المليئة بالاخطار.
- بني، ما قولك لو تبادلنا؟

قالت شيرلي ذلك واستراحت في جلستها وضحكت.
- نتبادل ماذا؟
- انا ارافق غراهام. هل تميلين الى تريفور؟
ضحكت بني ورفضت قائلة:
- لا تبادل يا شيرلي. انا سعيدة بغراهام.
- كوني منفتحة يا بني.
- يبدو انك اثرت كثيراً على تريفور... وهو جميل الطلعة.
- ليس كغراهام.
ومن ثم سألت بتطفل:
- ماذا عملتما على السفينة؟
- لا افهم سؤالك يا شيرلي.
- هل تبادلتما المغازلة؟
- ابداً!
- ولكنكما تعرفتما على بعضكما.
- وتعرفنا على غيره من المسافرين ايضاً. كنا تسعة اشخاص.
- اذن لا مبادلة؟
ونظرت الى بني بحرد:
- انت لا تريدين غراهام، اليس كذلك؟
اظهرت بني شيئاً من فروغ الصبر رغم انها كانت تتسلى باقتراحات شيرلي الصبيانية.
- الم يخطر على بالك ان علينا استشارتهما اولاً؟
- لن يبالي اي منهما.
ولما لم تعلق بني على كلامها استسلمت وهي تتنهد بحسرة.
تحولت بني الى مسألة اقناع شيرلي بالا تخبر ماكس انها تعرف الآن عن الخطوبة بين والدها ووالدة ماكس، وطال النقاش بينهما. كانت طيلة الوقت تقلب في ذهنها صيغة السؤال الأكثر اقناعاً. وفجأة بانت الفيلا حيث تقطنان ولم تفاتح شيرلي الا في اللحظة الاخيرة.
- لم لا؟
قالت شيرلي معترضة:

- يجب ان يعلم ماكس اني اعرف، خاصة ان والدك سيكون حمواً لي. لماذا اهملني الجميع ولم يعلموني بشيء؟ كان اولى بك انت ان تطلعيني على هذا الأمر قبل غيرك اذ اننا سنكون سلفتين.
- شيرلي، الا تعتقدين انك تتكلمين عن الأمور كأنها اصبحت حقيقة واقعة؟
ندمت بني لتسرعها في ابداء هذه الملاحظة، غير انها تغار على مصلحة شيرلي لأنها ستنهار كلياً اذا انهارت آمالها. وتابعت بني كلامها رغم نظرة الاستفهام في عيني شيرلي:
- تبدين اكيدة ان ماكس سيتزوجك. فرضاً لو كنت مخطئة؟ هل فكرت في ذلك؟ ماكس يثبت يوماً بعد يوم انه العازب الأبدي.
- ما الذي يدفعك الى الاعتقاد بأن ماكس لن يتزوجني؟
كان في نغمة صوتها ما دل على برود في الشعور يتخلله ابتسام على شفتي شيرلي الصبيانيتين وتابعت قائلة:
- انا وماكس متفاهمان تماماً. ربما لاحظت ذلك.
- لكنه ليس عطوفاً... اوه، هذا ليس من شأني يا شيرلي. ما كان يجب ان ابدي تلك الملاحظة. ارجوك، انسيها.
- انت لا تصدقين انه سيتزوجني. او... او انك تظنين انه سيبادلك الحب؟
- شيرلي!
صرخت بني بغضب شديد وهي تحس بحرارة في وجهها:
- لا تهربي. انت التي ابديت الملاحظة المتعلقة بعدم التفاهم بيني وبين ماكس وبعدم حب ماكس لي، وانت تعلمين ان ذلك صحيح.
- صحيح انه لا يحبك. توقفت شيرلي عندما انعطفت سيارة التاكسي فجأة لأن الطريق امامها كانت تسده شاحنة موز، وعلا شجار بين السائقين اقتنع بعده سائق الشاحنة بأن يتراجع قليلاً ليفسح المجال للتاكسي ليعبر في هذا الطريق الضيق الملتوي. واستأنفت شيرلي كلامها:
- ولكن السباحة كل صباح؟ يبدو ان كلاً منكما يجد متعة كبيرة فيها.
- بالطبع، لأن الشجار مستحيل اثناء السباحة.
قدرت بني ان اجابتها كانت غير مقنعة. لا بل اثارت غضبها مثلما

ازعجتها كلمات شيرلي، وذكرتها في الوقت نفسه بالتقارب الذي يقوم بينها. وسألتها شيرلي:

- متى ستخرجين مع غراهام؟ الم تتواعدا؟
- سنقوم برحلة الى البحيرة الغالية في عطلة نهاية الاسبوع.
- ولكنك ستقومين بهذه الرحلة مع السيدة ردفيرن. كنت ساتي معكما.
- قد نذهب سوياً الى هناك عن قريب لنقوم ببعض التنقيب. اما الرحلة مع غراهام فهي رحلة استجمام وزيارة لبعض الأماكن اذا استطعنا.

وبعد لحظة قالت:

- يمكنك ان تأتي انت الاخرى فلا مانع لدي او لدى غراهام.
- صحيح؟ اوه، احب ذلك اذا لم اكن عبئاً عليكما.

وتذكرت بني كيف كانت شيرلي تلتهم غراهام بنظراتها عند اول مقابلة لهما.

- كلا. لن تثقلي علينا. لكن عليك ان تستشيري ماكس لأننا سنقضي ليلة الأحد هناك.
- قال ماكس بضرورة دليل. هل تدبرتما الحصول على دليل؟
- لا يلزم ذلك لأن غراهام يعرف الطريق.
- ستذهبان اذن بلا دليل؟ وبدون موافقة ماكس؟

تضايقت بني كثيراً من لهجة شيرلي ولكنها اكدت ثانية:

- قلت ان غراهام يعرف طريقه اليها.
- لن يسمح لي ماكس بالذهاب دون دليل.

قالت شيرلي وهي ترتجف:

- متأسفة. لا بأس ستكونين في رفقتنا عندما نذهب انا والسيدة ردفيرن في بحر اسبوع.

في تلك اللحظة دخل التاكسي باحة الفيلا ونزلتا منه.

في صباح يوم الأحد التالي توجهت بني بعد الافطار الى خليج صغير اكتشفته بعد مدة قصيرة من وصولها الى جزيرة دومينكا. كانت الطريق المؤدية الى هذا الخليج الرملي محاطة بشجر العليق الكثيف ولكن الواصل اليه ينسى تعبه عندما يمتع نظره بجمال المنطقة. والخليج يمتد على مساحة كبيرة برمله البركاني النظيف الناعم كالطحين. وعلى طرف منه يوجد كوخ

صغير تغطيه النباتات كانت بني تستعمله لتبدل ثيابها، وهي تعلم انها تعتدي على املاك الغير.

تمددت على الرمل في لباس السباحة وكانت الشمس حادة تطل عليها من سماء شديدة الزرقة. غطت رأسها بقبعة قش واسعة ووضعت على عينيها نظارات شمس سوداء. ولم تمض لحظة حتى ذهبت في سبات بتأثير نسيم البحر وخرير حركة الماء.

ولكن فجأة افاقت على صوت تنحنح خفيف قريب منها. وعلى الفور جلست وهي ترتجف بسبب المفاجأة، وبسبب مواجهة صاحب الكوخ. رفعت نظرها. من كان واقفاً فوقها؟

- ماكس!

خرجت هذه الكلمة من فمها تلقائياً. اعتذرت له وسألته وهي تنظر الى الكوخ:

- هل هو لك؟

اومأ ايجاباً وجلس على الرمل قبالتها.

- يبدو انك تأتين الى هنا بانتظام.
- لم اعلم ان الكوخ لك.

قالت مرتبكة لأنها تركت ثيابها على كرسي بدون ترتيب:

- هل لا تستعملينه اذا عرفت ان الكوخ ملك لي؟

برزت عظام وجهه وهو يتكلم بجفاء كعادته وكانت شفتاه مطبقتين عندما لا يتكلم. لا تتذكر انها التقت برجل بارد، قاسي النظرات، عديم الليونة مثله. يبدو لها خالياً من كل شعور وعنده مناعة ضد شعور الغير. لكنه قوي ويعتمد عليه في الملمات رغم انه لا يتسامح مع اخطاء الغير او حتى مع ضعفهم.

- لكنت استأذنتك قبل استعماله: وتساءلت اذا كان الخليج ملكاً له ايضاً، واذا كان لا يحبذ تطفلها على خصوصياته.
- اكتشفت هذا المكان بعد ان اتيت الى هذه الجزيرة بوقت قصير، وآتي اليه كلما استطعت.

وصعد مع الريح اريج آت من ازهار الاشجار الحرجية. وتشعث شعر بني وبحركة عصبية ارادت ان تضع قبعتها على رأسها لكنها اعادتها الى

مكانها على الرمل. وشعرت واليأس يملأ قلبها انها فقدت ثقتها في نفسها اكثر من اي وقت مضى. سألته:

- هل هذا الخليج ملك لك ايضاً؟
- نعم، هو جزء من اراضيّ.

تمدد على ظهره واسند رأسه على يديه. تجول بعينه في القبة الزرقاء والبحر ومن ثم ادار وجهه نحو بني:

- لم تنزلي الى الماء بعد. الا تستحمين اليوم؟
- كان ذلك في نيّتي بعد حمام شمس قصير.

تكلم بعد تردد وجيز وسألها دون مقدمات لماذا اطلعت شيرلي على الخطوبة.

- لم تخف شيرلي ذلك عنك.

قالت معتذرة:

- كان هفوة مني... صديق لي التقيت به على ظهر الباخرة ذكره بمحض الصدفة فسمعته شيرلي صدفة ايضاً.
- اذن لم تطلعيها انت مباشرة.
- ما كنت افشي هذا لها علماً مني بشعورك.
- غراهام... آه، صحيح، ذكرت شيرلي اسمه. كيف عرف بالخطوبة؟
- انا اخبرته ونحن على الباخرة.

اغمض عينيه قليلاً وقرأت بني افكاره. انها لا تجيد كتمان شيء لنفسها، وتطلع اي انسان او عابر سبيل على اي شيء. فلماذا تهتم الآن بشعوره، ولماذا اخذت تهتم به في المدة الأخيرة؟

- كنت انت وشيرلي مع غراهام هذا يوم البارحة كما قالت لي. وهناك فتاة اخرى ستخرج معها شيرلي مساء الغد. هل هذه الفتاة صديقة لغراهام؟
- فتاة؟ اية فتاة..؟

فطنت الى خطئها وعدلت الأمر اذ قالت:

- آه نعم. هي صديقة... لغراهام.

واي اسم ستعطيه اذا سأل عنه؟ فسبقته اليه وقالت:

- ميريل فيربانكس...

- ميريل فيربانكس...

وكان يتكلم مع نفسه.

- غريب، لم اسمع ان احداً يحمل هذا الاسم.
- هل تعرف جميع سكان هذه الجزيرة؟
- جميع البيض منهم، او اعتقد اني اعرفهم جميعهم... بالاسم على الأقل. في كل الأحوال، يجب ان تكون هذه الفتاة جديدة هنا. يأتينا احياناً موظفون او متطوعون من الشؤون الاجتماعية. هل تعرفين شيئاً عنها؟
- كلا. لا شيء.
- ما رأيك فيها؟ هل تؤتمن على شيرلي؟

ها قد اوقعت نفسها في ورطة. كان عليها ان تحذر شيرلي من الأساس. قالت:

- اعتقد ان شيرلي ستكون في امان برفقة هذه الفتاة.
- قد اقابل هذه الفتاة اولاً. ما زالت شيرلي اصغر من ان تميز بين الاصدقاء.
- اوه، لكني قلت ان لا بأس من رفقتها. اؤكد لك ذلك، يا سيد... يا سيد... وترددت بني متلعثمة قليلاً.
- ناديتك بني مؤخراً ومن العدل ان تناديني ماكس.

فاجأها بابتسامة وبقوله الذي ادهشها كثيراً:

- اذا تركنا الرسميات جانباً ربما تتحسن العلاقة بيننا.

هل يريد فعلاً تحسين العلاقات؟ هل لأن بالنسبة الى زواج والدته بعد ان تحادث معها؟ كان ينظر اليها فردت عليه بابتسامة حلوة وودت لو انه يتابع حديثه الودي الذي قطعه قدوم شيرلي الى المسبح منذ بضعة ايام مما اثار خيبتها. وقفت ونزعت نظارتها عن عينيها وتهيأت للنزول في الماء. وتبعها هو ايضاً.

- هل اكتشفت الحديقة المرجانية ايضاً؟

سألها وهو يسبح الى جانبها:

- كلا. اهي قريبة؟
- في طرف شبه الجزيرة التي ترينها هناك. اتبعيني.

اتجه كلاهما اليها سباحة وعند اقترابها من شبه الجزيرة ابتعدت عنها خوفاً من تيارات بحرية قد تجرفها، الا ان ماكس طمأنها بأن السباحة هنا سالمة.

انقطعت انفاسها عندما وقع نظرها على جمال الحديقة فوق الماء وتحته. غطست في الماء وبهرتها فسيفساء الألوان الخلابة.

صعدت الى سطح الماء ورأت ماكس امامها فسألها عن مشاهداتها.

- مذهل!

وغطست ثانية وتبعها ماكس وكان كلاهما الأن ينسابان كأنها قطعة واحدة مع العالم الباطني الساكن الهادىء. اذهلها تنوع نبات المرجان المعروف بقرن الوعل، وقرن الحصان، مرجان العقل والنجمة المرجانية. كانت تمتع نظرها بعالم من الجن السماوي. رأت اغصان النباتات المائية تتمايل بين الأمواج برقصات سحرية، ونباتات مروحية الشكل تتراقص مع حركة الماء وتذر على المرجان الوانها القرمزية والخضراء بلون العشب. رأت سمك الفراش وسمك الملائكة وغيرها من الاسماك يمر امامها في عرض كله ابهة من الألوان التي تضاهي الوان قوس القزح. لم تجفل الأسماك من الدخيلين، بل كانت تقترب من بني وكادت تلامسها.

كان ماكس وبني يخرجان من الماء بين الفينة والأخرى، وفي النهاية ظل ماكس على الرمل وتابعت بني سباحتها وهي تتردد في ترك هذا العالم السحري، ولولا نداء ماكس لبقيت في الماء الى ما لا نهاية. خجلت بسبب تأخرها.

- كيف لم تكتشفي هذه البقعة مع العلم انك تعرفين كونها مياهاً مرجانية؟

كان يراقب كل حركة من حركاتها وهي تجفف جسمها.

- كنت اعلم انها مرجانية ولكن قلة الوقت وصعوبة الوصول اخراني عن ذلك.

- سأقطع طريقاً يسهل الوصول. ماثيو كثير الانهماك بالحدائق. سأولي هذه المهمة لغيره.

تمدد ماكس على الرمل ووجدت بني ان لون بشرته داكن مثل لون الرمل البركاني. وكان جسمه غير البدين ممتلئاً صحة بفضل نشاطاته اليومية في

المزارع والسباحة. سيعمر طويلاً دون ان يشيخ. الا ان شيئاً فيه كان يحيرها. فبالرغم من التقارب الحميم وجو الطبيعة التي توحي بالألفة والسلام، لم يتغير وضعه نحوها. يحافظ وجهه على قساوته في كل الظروف كأنه قُدَّ من الصخر.

- اشكرك على هذه الفرصة الحلوة التي متعتني برؤ ية المرجان. هذه خبرة لا تنسى.

- يوجد لدينا قارب قعره من زجاج. كما توجد اقنعة للتنفس تحت الماء. ستتمكن من مشاهدة كل شيء بصورة ادق.

- آه، احب هذا كثيراً.

قالت ووجهها يطفح بشراً:

- هل ستأتي... اعني هل من عادتك ان تتجول في هذا القارب مستعملاً جهاز التنفس؟

ضحك من وجلها الذي بان في لون وجهها. قال:

- كنت في السابق اقوم بذلك. اما مؤخراً فلا تسمح لي اعمالي. اما اذا رغبت في رفقتي فسيكون من دواعي سروري ان البي طلباتك.

جلب وضعه هذا وعرضه اللطيف الارتياح والسرور الى قلب بني. لو تابعا هذه الالفة في كل الظروف لشعرت بسعادة ونشوة دائمة. وفكرت ان تستغل هذا التقارب فتشجعت وفاتحته بموضوع الزواج:

- الزواج يا ماكس. هل قبلت به الأن؟

انتفض ماكس وتيبس جسمه وقال باقتضاب:

- كلا يا بني. لا اقبل به. ورأيي هو ان على والدتي ان تتخلى عن فكرة الزواج.

- ولكن لماذا؟ اذا كان هذا سيجلب لها السعادة... اذا كان هناك احد يحبها...

- الحب؟

رفع حاجبيه استهزاء:

- لماذا تصرين على ذلك؟ تعرفين تماماً انه لا يوجد انسان يرغب في والدتي لشخصها.

- لماذا تتصور ذلك؟ حتى في امك ذاتها؟

- كونها والدتي هو ما يقلقني. لوالدتي عدة وجوه في طباعها مما يدفعني الى اليقين ان لا احد يهتم بها شخصياً بكل اخلاص كما يهتم بمالها.
- ما هي هذه الوجوه التي تقلق بالك؟ يدهشني ان تجد كل ذلك في والدتك.
- انا لا اجد عيوباً فيها، بل حقائق. يجب ان تعرفيها. ان والدتي تعيش نصف وقتها في الغيوم. تشتط ولا تخطط. وكثيراً ما تنسى كل شيء في حياتها الشخصية في سبيل عملها. هل ستجدين رجلاً يحب امرأة لها هذه الصفات؟
- محتمل كثيراً، بل اكيد. عندما تحب شخصاً تعمى عن هذه الأشياء.
- يا فتاتي. كلامك غير مقنع ودفاعك عن والدك ضعيف. انا شخصياً الاحظ اموراً كهذه، واضجر منها وابتعد عن امرأة هذه صفاتها.
واضاف وهو لا يحيد نظره عنها:
- واي رجل غيري يفعل مثلي. . . الا اذا كان اهتمامه محصوراً في شيء آخر.
- يحصر والدي جلّ اهتمامه في والدتك لا في مالها.
- طبيعي ان تقولي هذا، ولكن الأمر يختلف في الواقع. كان قبل والدك غيره من الرجال. كفى نقاشاً في هذا الموضوع. لقد اوفيناه حقه من الايضاح واصبح مثل قصة ابريق الزيت.
- لكنك لست على حق ولا تلين لك قناة. انك حكمت على والدي قبل ان تقع عينك عليه.
كانت عيناها تتوسلان وهي تعلم بعدم جدوى جهودها.
- لك الحق ان تعتقد بما تفكر، ولكن لا اهمية لذلك لأن نورا عازمة كل العزم على الزواج من والدي، وافقت ام لم توافق.
- غمق لون وجهه وضاقت فتحتا عينيه وقال:
- قلت وافهمتك ان الزواج لن يكون. واعيد واكرر الآن، بالرغم من عزم والدتي سأحاول كل جهدي لمنعه.
- لا تستطيع منعه!
- سنرى.
- كيف يمكنك منعه؟

كانت ترتجف داخلياً رغم ثقتها الظاهرة:
- لا توجد اية وسيلة لديك.
- الوسيلة تأتي من حيث لا تدرين. من واجبي حماية امي من صيادي الثروات وتأكدي من مقدرتي على ذلك.

٥ - كن دليلي

لم ينبس احدهما بكلمة واحدة وهما عائدان الى البيت. وبينما كانت بنّي تسير بجانبه كانت تحتار من امرها. فهما على وفاق تام حيناً وعلى اختلاف تام حيناً اخر، وكلما فتحت بني الموضوع استعاد ماكس موقفه المتشدد منها. وكانت تعلم بسلبية موقفه عندما تفاتحه بقضية زواج والدته، ولكنها ترى ان المثابرة قد تؤتي ثمارها.

عندما وصلا كانت شيرلي ونورا جالستين على الفراندا. كانت عينا شيرلي منتفختين من البكاء وفي يدها منديل مبلل.

- ما الأمر يا طفلتي؟ كان صوته حنوناً وقلقه على شيرلي حقيقياً لم تعهدهما فيه من قبل:

- هل تتألمين من شيء؟

قالت نورا:

- اسألها وتأكد. امضت المسكينة طيلة بعد الظهر وحدها. اين... كنتما؟

توقفت فجأة غير مصدقة ما رأت كما دهشت شيرلي هي الاخرى. كان ماكس حاملاً ثياب السباحة وكان شعر بني مبللاً وتحمل منشفة الحمام تحت ابطها. سألتهما نورا بينما كانت شيرلي ترتجف من الغيظ:

- هل كنتما تسبحان معاً؟

دل استفهامها على الذهول اكثر من نيتها في معرفة ما كانا يعملان.

- كانت بني على الشاطىء عندما وصلت الى هناك، وكانت فرصة لتكتشف الحديقة المرجانية.

- لم تأخذني ولا مرة الى تلك الحديقة.

شكت شيرلي والدموع تنهمر من عينيها.

- كيف آخذك وأنت لا تستطيعين السباحة بعد؟

اجابها ماكس بحزم ولكن بلطف ايضاً، وتناول كرسياً وجلس بجانبها واضعاً ذراعه على كتفيها.

- لماذا لا تطالعين؟

- لا احب المطالعة وانت تعرف ذلك. وكنت وحدي كل هذا الوقت لأن الوالدة آوت الى فراشها لتستريح، ولم تنهض الا منذ هنيهة.

- لم اكن غافية يا عزيزتي. كنت فقط استريح لأنني لا احتمل الشمس. ونظرت الى السماء. حمداً لله، فالمطر آت وسيرطب الجو.

الامطار على هذه الجزيرة تهطل بغزارة، وعندما تتوقف وتبرز الشمس يتصاعد البخار من الأرض ويجف كل شيء كأن المطر لم يكن.

- ستمطر في خلال ساعة او اقل.

ربت ماكس على كتف شيرلي وقال:

- سنتناول الشاي معاً الآن وسآخذك في نزهة. هل هذا يعوّض عليك وحدتك؟

ابتسمت شيرلي ابتسامة ممزوجة بالدموع:

- انا وانت فقط؟

- نحن الاثنان فقط.

هذه مفاجأة اخرى تستولي على بنّي بسبب التحوّل المفاجىء نحو شيرلي. هذا ليس دليل حب لها، بل عطف واشفاق ومحبة.

نهضت شيرلي لتغسل وجهها وبنّي لتغير ثيابها. وبينما كانت هذه الأخيرة في غرفتها قرعت شيرلي على بابها ودخلت. كانت شيرلي مرتبة الشعر مهندمة ولكن آثار البكاء كانت بعد بادية على وجهها.

- ماذا عملتما بعد الظهر؟

كان سؤالها حزيناً ولكن في غير محله بالنسبة الى بنّي التي قالت:

- ماذا تعنين بسؤالك هذا؟

- انت وماكس...

عبست بني وكانت شيرلي كثيرة الاضطراب.

- سبحنا في حديقة المرجان. هذا كل شيء يا شيرلي.
- انه مكان رومانسي...

كانت شيرلي تفرك يديها بعصبية ظاهرة وتبلع ريقها بين الحين والآخر.
- لا اعتقد انك ستأخذين ماكس مني. هل ستأخذينه؟
- سآخذ... ماذا تقولين؟
- اجيبي على سؤالي بكل صراحة.
- طبعاً سآخذه.
- لكن هل تحبينه؟

كانت عيناها الزرقاوان تبحثان عن جواب بلهفة. التفتت بنّي الى المرآة وبدأت تسرح شعرها:
- في الحقيقة لا افهم ما تعنين. الم تقولي انت بنفسك انني وماكس لا نتفاهم؟
- اعني تميلين اليه يا بنّي، لا اقول تحبينه.
- هراء!
- انك تحمرّين. انه جذاب للغاية وسهل عليك ان تقعي في حبه، وخشيت من ذلك منذ البداية. ويصيبني الهلع بمجرد التفكير انه قد يلحظ فيك الجمال الفتّان...
- ارجوك يا شيرلي، انا لست جميلة وماكس يعرفني الآن تماماً، فلا تقلقي.

كانت بنّي ترتعش كل الوقت متأثرة بعبارات شيرلي من انها قد تقع في حبه بينما هي تريد اخاً...
- انت جميلة وعيناك واسعتان وداكنتان وشعرك... له ظل كستنائي وفيه لمعان دائم...
- توقفي يا شيرلي!

قالت بني بلهجة الأمر لأن شيرلي اصبحت مزعجة.

ولكن هذه تابعت:
- بشرتك ووجهك... اوه، كل شيء فيك كامل. غراهام مثلاً، يفضلك.
- التقينا على ظهر السفينة ولم يكن يعرفك آنذاك!

- ولكنه لم يلق حتى نظرة عابرة علي.
- وتريفور، الم تجذبيه؟ كان كله عيوناً عليك.
- تريفور ليس الا مغازلاً لا يعرف الرزانة.
- اجوبتك بديهية وفورية.

كانت تحاول عبثاً تغيير مجرى الحديث.
- انا خائفة، اريد ماكس، اريده، اريده.
- وفي الوقت نفسه تغازلين شاباً اخر، اين الإخلاص.
- هذا فقط للتلهي... لأرى مدى جاذبيتي. ولكن ماكس هو الذي اريد.

وضعت شيرلي رأسها بين يديها وغرقت في النحيب.

كانت بارعة في تمثيل دور الفتاة المهملة كي تجتذب انتباه ماكس وعطفه... او هكذا ظنت بنّي. لكنها ترى الآن ان شيرلي صادقة في ايمانها بحبها لماكس. وفهمت بنّي طبيعة عاطفتها. انها ما زالت فتاة صغيرة تعيش وحيدة في جو ليس جوها اصلاً، وتفتقد والدها الذي لا يعوض. وطيشها على طهارته وسيلة لاجتذاب ماكس اليها. ولكن لشيرلي جانباً آخر صدمها، وفي الوقت ذاته جعلها تشعر بالذنب لأنها لم تعتن بها وتتفهمها كما يجب.

نهضت وجلست الى جانبها. لفت ذراعها حول جسمها واخرجت منديلها فأخذت تجفف عينيها.
- شيرلي، اهدئي يا عزيزتي.
- انت... صديقتي، الست كذلك؟

كانت نظرة شيرلي كلها توسلات.
- كوني صديقتي يا بني.
- بكل تأكيد سأكون صديقتك.

كان صوتها مخنوقاً ومبحوحاً من التأثر ومن الشعور بالذنب. لو انها فطنت الى هذا قبل الآن... ولكن سطحية سلوك شيرلي خدعتها. ومن جهة اخرى وجدت شيئاً من راحة الضمير عندما تذكرت ان غراهام ايضاً خدع بمواقف شيرلي. وصممت في نفسها على ان تعاملها بغير طريقتها السابقة.

- لن تحاولي ان تدفعي ماكس ليحبك؟ اتعدينني؟
مسحت دموعها بمنديل بنيّ واعادته اليها.
- لا تخافي من حب ماكس لي كما تظنين. واذا كان وعدي يقنعك فاني اعدك.
- اتعتقدين انه سيتزوجني؟
ضيّق هذا السؤال الخناق على بنيّ التي كانت تريد ان تدخل في موضوع آخر، غير انها قالت:
- هل درست مشاعرك تماماً نحو ماكس؟ انت تفتقدين والدك يا شيرلي، ومن المحتمل انك تجدين في ماكس شخصية والدك وتماثلين الواحد بالآخر، ولذا تريدين ان يحل ماكس محل والدك.
- كلا... احب ماكس حباً يختلف عن حبي لوالدي.
لم تعط كلمات بنيّ الأثر المطلوب وكان جواب شيرلي متحمساً.
تذكرت بنيّ تأكيد ماكس انه لن يقع في حب امرأة مطلقاً فقالت:
- اشتهر ماكس بأنه الاعزب العنيد. اتعرفين ذلك؟
- كل الرجال يرغبون في الزواج!
قالت شيرلي بعناد.
- لا يا عزيزتي، ليس كلهم. بعضهم لم يخلقوا للحياة الزوجية، كما لم تخلق بعض النساء لأن يتزوجن. الناس يختلفون في مآربهم ومشاربهم.
- انت مقتنعة بأنه لن يتزوجني أبداً، ابداً.
بكت ثانية فشدت بنيّ عليها وهزتها بقوة:
- انت جد صغيرة بعد لتفكري في الزواج. امامك طريق طويل واشياء كثيرة.
- ولكن كيف؟
مدت ذراعيها الى الأمام بيأس:
- ماذا اجد هنا؟ اعيش في عزلة يا بنيّ. انا متوحدة منذ اليوم الأول من حياتي هنا.
- صحيح ان هذا المكان لا تسلية فيه. ولكن اطمئني يا شيرلي. اعدك انك لن تشعري بالوحدة طالما انا هنا.
- اوه، كلمة شرف؟ اتأخذينني حيث تذهبين؟

- نعم، سآخذك معي. وسيصل والدي في اسبوعين وستحبينه يا شيرلي، وعندما اكون في عملي سترافقينه في تجولات تقومان بها لأنه يجب ان يرى كل شيء. هل ستفعلين هذا من اجلي؟
- احقاً تريدين ذلك مني؟ قد لا يحبني والدك.
- لا يجب ان ينشغل بالك بالناس. والدي سيحبك وسيجد متعة كبيرة في رفقتك.
هزتها من كتفيها وكافأتها شيرلي بابتسامة حلوة وتابعت بنيّ كلامها:
- تعالي، فقد يفقدان صبرهما وهما ينتظراننا لتناول الشاي.
كما توقعت شيرلي، رفض ماكس السماح لها بمرافقة بنيّ وغراهام الى البحيرة في نهاية الاسبوع المقبل، وابدى ملاحظات شديدة اللهجة يحذر بها بنيّ من هذه المجازفة. لكنها اقنعته ان هذه الرحلة ستمتعها كثيراً.
- لا تتوقعي ارسال بعثة استكشاف اذا ضللتما الطريق. واذا دفعكما تهوركما الى عدم اتباع نصحي، تدبرا امركما بنفسكما.
- قد آخذ بارشاداتك لو انك تصوغها في قالب ارشاد حقيقي، ولكنك تجد متعة في القاء الأوامر فقط.
- لا فرق بين الاثنين اذا كانا في مصلحتك. والمسؤولية مسؤوليتك طالما تعرفين صالحك. لا تتوقعي اية مساعدة.
- لن ينتهي بنا الأمر الى هذا الحد. يعرف غراهام ما هو مقدم عليه.
وكالعادة انتهى الجدل بجو فيه حقد دام حتى نهاية الاسبوع. لم يأت ماكس الى المسبح ايضاً، وشعرت بنيّ بمرارة وخيبة امل حتى انها كادت تلغي الرحلة. واتى غراهام بعد افطار صبيحة السبت.
- تريفور آت ايضاً.
قال غراهام.
- وسيصل بعد بضع دقائق. انا دعوته لينضم الينا كيلا يبقى وحده. هل يضيرك هذا؟
- كلا، البتة.
تغيب ماكس بصورة مفاجئة في رحلة عمل الى جزيرة مجاورة من جزر المارتنيك، ولدى وصول غراهام كانت شيرلي جالسة على سطح الشرفة تندب حظها، بينما كانت السيدة ردفيرن تحاول مواساتها بأنها ستأخذها

معها الى البحيرة يوم الأحد التالي.

- قد نقنع ماكس بأن يرافقنا. ايعجبك هذا؟

- اريد ان اذهب اليوم.

قالت شاكية:

- ماكس رهيب. كنت اعتقد انه يحبني.

- يحبك كثيراً ولهذا يعتني بك كثيراً.

- هل تعتقدين ذلك؟

ابتسم غراهام ابتسامة خفيفة.

- ومع ذلك اريد ان اذهب معهم.

- الرحلة ليست امينة. وماكس يعرف ذلك.

- بل على العكس. ليس ما يخيف في هذه الرحلة. سأكون انا الدليل.

توقف ونظر الى بني نظرة ذات مغزى.

عندما رأت بني غراهام قادماً عن بعد ذهبت اليه قبل ان يصل اليهن وكلمته عن حالة شيرلي النفسية وطلبت اليه ان يوليها شيئاً من الاهتمام واللطف ولهذا ابدى غراهام رغبة في مساعدة شيرلي:

- لماذا لا تستطيع شيرلي ان ترافقنا؟ انها راشدة ويمكنها ان تقرر ما تريد.

- نعم، انا راشدة. سآتي وإن اغضب ذلك ماكس.

- لا يغضب فحسب بل سيثور ايضاً... وخاصة عليّ.

- عليك انت؟

نظرت شيرلي الى بني مستغربة:

- لماذا يحنق منك يا بني؟

- لأن فكرة الرحلة فكرتي ولأننا ذاهبون بدون دليل.

هزت شيرلي كتفيها استخفافاً ونظرت بني اليها بشيء من القلق.

- آسفة يا شيرلي، لكنك لن تأتي. كما قلت، سيحنق ماكس.

- فعلاً سيحنق.

قالت نورا وهي تنظر الى جبل البركان البعيد والضباب الذي يغطيه متوقعة المطر بعد قليل.

وكانت تنتظر ظهور قوس القزح الذي يسبق ذلك، واضافت:

- ارى ان نذهب الى البحيرة يوم الاثنين او الثلاثاء من الاسبوع الآتي يا

بني، حيث يوجد هناك عمل لأبحاث لا يستهان به في تلك المناطق.

- لا تفكري في عملك الآن يا سيدة ردفيرن.

قاطعتها شيرلي بصوتها الصبياني:

- انا ذاهبة مع بني وغراهام.

- لست ذاهبة.

قالت بني بحزم وفكرت ان تقترح على غراهام تأجيل الرحلة:

- قلت انك ستأخذينني حيث تذهبين وها انت تحنثين بوعدك.

- لماذا لا تستطيع ان تأتي معنا طالما سيتغيب ماكس حتى يوم الاثنين كما فهمت منك؟ واذا اتفقنا جميعنا على عدم اخباره فلا تعود اية اهمية لهذا الأمر.

- لا شيء يخفى على ماكس. وشيرلي لن تأتي معنا يا غراهام.

والتفتت الى شيرلي قائلة:

- وسنذهب جميعنا يوم الأحد المقبل كما قالت السيدة ردفيرن، ويوم الأحد ليس ببعيد.

- وما عساني ان اعمل وحدي في عطلة نهاية الاسبوع بينما تكون السيدة ردفيرن مشغولة في عملها؟ اليس كذلك يا سيدة ردفيرن؟

- هذا صحيح.

وعادت نورا تتأمل الجو المحيط بالجبال البركانية ثم قالت:

- نعم، لدي الكثير من العمل.

عضت بني على شفتها. كانت قد عرضت عليها ان تساعدها ولكن نورا رفضت رفضاً باتاً، قائلة ان بني يجب ان تستمتع بعطل نهاية الاسبوع طالما هي مقيمة على ارض هذه الجزيرة.

- اذن، سأذهب مع بنّي وغراهام كما يروق لي.

- طبعاً يا عزيزتي...

وكان واضحاً انها لم تنتبه الى ما تفوهت به. واضافت ان عليها ان تدون بعض الأشياء قبل ان تنساها، ثم نهضت ودخلت الى البيت.

ولما وصل تريفور بعد بضع دقائق، جربت شيرلي قوة جاذبيتها عليه. وكان يتوقع طبعاً ان تكون شيرلي طرفاً في الرحلة. وبعد اخذ ورد اخذت بني تحتج، فاقترح تريفور وضع القضية للتصويت.

- آسف يا بنيّ، خسرت في التصويت.

قال غراهام وهو يضحك منها لأنها كانت مكتئبة.

- قالت بني:

- افضل الغاء الرحلة على اخذ شيرلي معنا ضد رغبات ماكس. الا نستطيع الذهاب في وقت آخر؟

- لماذا التأجيل؟ شيرلي تعرف ما تفعل ولها مطلق الخيار، لذا سنذهب كما اتفقنا.

بينما كانت شيرلي تستعد للرحلة ذهبت بنيّ الى المكتب حيث وجدت نورا تفحص قطعة من حجر تحت المجهر. انزعجت نورا قليلاً لتوقف عملها.

- نورا، جئت بخصوص شيرلي. لو انك لا تشتغلين. . .

- لكني اشتغل يا بنيّ.

- نجحت شيرلي في اكتساب تريفور الى جانبها، وهي مصممة على ان تأتي معنا متحدية بذلك رغبات ماكس.

- صحيح؟

توقفت نورا عن عملها ورفعت رأسها.

- أليس اسم الشاب غراهام؟ اوه، انسى كثيراً هذه الأيام.

- تريفور شاب آخر، صديق غراهام وهو آت معنا في الرحلة.

- شاب آخر؟ اصبحا اثنين الآن؟

ونظرت في المجهر وقالت: هذا معدن الميكا، لا. . . قلت اثنان؟ في هذا الحال لن يكون اعتراض ماكس وجيهاً بوجود شابين قويين يعتنيان بكما. كلا يا بني، لا اعتقد ان ماكس سيمانع. اذهبوا وانشرحوا. . . جميعكم.

انتظرت بنيّ بعض الوقت وهي في حيرة من امرها ولما استأنفت نورا عملها تركتها وخرجت.

كانت مضطربة كثيراً من احتمال غضب ماكس بسبب تحدي شيرلي لارادته، الا انها لم ترد استنفاد قواها في الجدل طيلة نهاية الأسبوع. ستترك هموم يوم الاثنين ليوم الاثنين عند عودة ماكس.

كانت وجهتهم جنوبية شرقية عبر جبال وعرة لكنها من اجمل المشاهد في

الجزيرة. كان الطريق الى لودان سهلاً نسبياً، واتفقوا ان يقضوا الليل هناك ثم يتوجهون بعد ذلك الى البحيرة يوم الأحد صباحاً. وفي طريق عودتهم من البحيرة سيعرجون على لودان حيث يستأجرون سيارة جيب لتقلهم الى منازلهم التي تبعد حوالي ثمانية كيلومترات عن روزو.

بعد لودان عليهم ان يقطعوا جبلين ارتفاع كل منهما حوالي الألف متر. هناك أيضاً مستنقعات واودية حادة الانحدار عليهم عبورها. كما ان عليهم شق طريقهم خلال غابات كثيفة خطرة الانحدار. هناك اراض زلقة وغدارة ايضاً. بالاضافة الى كل هذه المخاطر عليهم اكتشاف الطرق والممرات التي اخفتها اغصان الاشجار المتشابكة وحجبت عنها حتى الشمس. وفيما هم يتعثرون في سيرهم على نتوءات الجبال او في وسط الشجيرات الكثيفة، تأكدت بني ان المسيرة اخطر بكثير مما اعتقد غراهام. غير ان لهم قوة الشباب ونشاطهم، وفي النهاية اقتربوا من وادي القفار حيث توجد البحيرة الغالية.

-الاسم ينطبق تماماً على هذا الوادي الحزين حيث الخضرة معدومة بالمرة.

قالت شيرلي وهي ترتجف.

المكان مقفر وحزين خال من اي اخضرار عدا بعض عليقات محروقة تكافح لتبقى حية او دون احتراق. وتكثر في هذا الوادي جداول ساخنة جداً سريعة الجريان، وينابيع كبريت تتفجر من باطن الأرض في فقاقيع ساخنة تكاد تصل درجة الغليان.

سأل تريفور والقلق باد على وجهه اذ انه ما زال حديث العهد في جزيرة دومينكا، وتجواله اقتصر حول منطقة مدرسته فقط:

- هل هناك براكين؟

اجابت بني على سؤاله ان كل هذه الجزر بركانية. وكانت تنظر الى هذه المشاهد الكئيبة، وتصورت منطقة الكريبي منذ اكثر من مليون سنة عندما كانت كل البراكين تنفجر في وقت واحد، او على فترات اسبوع او اسبوعين بين الواحد والآخر. وبعدها انبثقت هذه الجزر الخلابة من تحت القشرة الارضية.

- انه مكان مدهش حقاً.

- مدهش؟
قالت شيرلي في استغراب:
- مدهش لمن يهمه علم الطبقات الأرضية.

تابعوا سيرهم بمحاذاة جداول تنحدر من الجبال، وهناك انبسطت امامهم البحيرة تغلي وتزبد وبخارها يقفز عالياً في الهواء.

- هل هذا جدير بالجهد الذي قمنا به؟

لم يدروا اذا كان سؤاله طلباً للاستحسان ام اسفاً على الجهود المبذولة، الا انه كان جلياً ان غراهام يفخر بايصالهم سالمين عبر ادغال منيعة بكثافتها وجبال صخرية وعرة.

جدير حقاً! استدارت بني بنظرها وهي تتصور الثوران الناري تحت اقدامهم داخل الأرض، لأن سلسلة الجزر هذه هي في الواقع قمم جبال كان تحتها اتون هائل من الرماد الحار والصخور الذائبة.

- تبدو كأنها على وشك الانفجار.
قالت شيرلي مرعوبة:
- يكون هنا جحيمنا اذا انفجرت الأرض وفجرتنا معها.
- سوف لا تنفجرين، ستدفنين فقط،
قال غراهام ساخراً:
- تدفنين تحت الأوحال والصخور الغالية.
- لا تتكلم هكذا.
قالت بني وهي تضحك:
- قد تخيف شيرلي حتى الموت.
- هذا يخيفني انا ايضاً.
اعترف تريفور:
- فاذا اعتبرنا الحياة على هذه الجزر، نراها مزعزعة... قد تثور هذه البراكين في اية لحظة ودون سابق انذار...
- البراكين لا تثور في معظم الأحيان. كانت بني مفتونة بالمشهد امامها وتتوق لتأتي مع نورا لتقوما بأعمال التنقيب هنا.
- وجزيرة المارتنيك؟
- جبل بليه؟ اسطورة قديمة تقول ان الجبل كان يسكنه رمز النار الذي

دان ينتقم للهنود بارسال كتل تلتهم الناس البيض. عندما ثار جبل بليه في اول هذا القرن، قتل ثلاثون الف مدني من سكان سان بيير في بضع دقائق.

- انذر الجبل الناس مدة طويلة، لكنهم لم يعيروه انتباهاً. وبالفعل كانت النيران تندلع من فوهة الجبل من حين لآخر، وتقذف الجبل بالحمم على فترات متقطعة مدة ثلاثة اشهر. وكان الناس يعملون وينامون ويلهون كأن شيئاً لم يكن، حتى عندما غطى رماد البركان الشمس واعتمت الدنيا، ثم حلت الكارثة.

- كان من الممكن انقاذ حياة جميع الناس دون استثناء. ومن غير المعقول ان القليل القليل رحلوا عن المدينة. وتقع كل اللائمة على موظفي الدولة الذين كانوا يهزأون من اولئك الذين كانوا يقولون ان مدينتهم الجميلة سيقضى عليها.

لاحظ غراهام ان شيرلي كانت شاحبة اللون فاندفع نحوها عفوياً وامسك بيدها:
- لا تخافي يا شيرلي. كل ذلك حدث من زمن طويل.
- قد يحدث مجدداً.
والتفتت الى بني متوسلة:
- هل نبدأ بالعودة الآن؟
- حسناً. لنعد.

بدأوا يتضايقون في تنفسهم بسبب بخار ورائحة الكبريت الذي كان يتحول الى لون المعدن الرمادي في الهواء، والأبخرة هذه قتلت حتى رجالاً اقوياء.

وبعد مسيرة ساعتين لاحظت بني ان غراهام لم يكن متيقناً من طريقه، وان شيرلي بدأت تتباطأ في مشيتها.

- هل نحن على الطريق الصحيح؟
سألت بني بقلق شديد:
- هذا ليس الطريق الذي اتينا منه.
- فكرت في سلوك طريق آخر...
واخذ غراهام يدير نظره حوله.

- هذه المنطقة تختلف تماماً. كلها اعشاب.
- يقول ماكس بضرورة تقطيع النبات الكثيف لشق الطريق.
- عادة يستطيع الفرد شق طريقه بسهولة.
- لا تقل اننا ضللنا الطريق، قالت شيرلي وهي تقترب منه: اشعر بتعب.
- قال تريفور:
- تقوّي. الطريق طويل امامنا. وتبعته بنيّ لتحثهم:
- يجب ان نتحرك والا لن نصل لودان قبل حلول الظلام.

من اصعب المجازفات ان يفقد الانسان وجهته في وسط دغل غدار كهذا، ولم تعد بني تشتهي ان تأتي مع نورا للتنقيب هنا.

قال غراهام:
- هذا هو الطريق. هذا اكيد.

ورغم تأكيده كانت في صوته نبرة شك. وتملكها الخوف لأنهم كانوا يتخبطون بين اعشاب وعليقات تحيط بهم من كل جانب.
- نحن نسير في الاتجاه الصحيح. هذا كل ما استطيع قوله.

قال غراهام ذلك وهو ينظر الى جهة الغرب حيث بدأت الشمس تغيب.
- بني؟ انا تعبة.

قالت شيرلي:
- هل نستريح قليلاً؟
- اعطيني يدك.

قال غراهام.
- لا يجب ان نتوقف قبل ان نجد طريقنا، والا فنحن في وضع حرج.

دهشت بنيّ لمعاملته اللطيفة تجاه شيرلي منذ بدء الرحلة.
- اخشى اننا لن نكون في لودان قبل الليل.

قالت شيرلي وهي تبكي:
- ليتني لم آتِ.

رفعت بني حاجبيها استهجاناً لأن شيرلي لم تكن صادقة في امنيتها بالبقاء في البيت.

قال تريفور متشائماً:
- لن نجد طريقنا حتى قبل حلول الظلام. اقول هذا مرغماً يا غراهام، واشك كثيراً في الوصول الى لودان هذه الليلة.

قالت بني:
- يجب ان نكون هناك بأي ثمن.

كانت كلمات ماكس ترن في اذنيها على انه لن يرسل نجدة للبحث عنهم بعد ان حذرها من القيام بالرحلة دون دليل، لأنه يعرف احتمالات الاخطار. وعضت شفتها ندماً وحسرة لتحديها ماكس بقولها انهم لن يحتاجوا الى دليل. هل تكون لها الجرأة على مواجهة ماكس اذا صح ما كان يؤكده؟ وكررت بني حثها:
- يجب ان نصل لودان قبل حلول الظلام يا غراهام، والا فلن ننام في بيتنا هذه الليلة...
- وماكس؟ ماذا سيقول لنا؟

قالت شيرلي معاتبة.
- غضب تماماً عندما علم انك رضيت بمجيئي معكم، وسيثور غضباً اذا ضعنا كما قلت يا بني.

دهش تريفور لقول شيرلي، وابدى ملاحظة بأنه يفهم من كلام شيرلي انها تود إغضاب ماكس.
- وهذا ما فهمته انا ايضاً.

قال غراهام مرتبكاً.

تطلعت بني في شيرلي لكن هذه اخفت ما قد تعبر عنه عيناها لأنهما كانتا ترفان. فعبست بني... مسلك شيرلي غريب منذ البداية:
- لا ادري لماذا تقولين يا شيرلي انني انا التي سمحت لك بمرافقتنا، بينما كنت تؤكدين انك حرة في تصرفاتك تفعلين كما تشائين.
- هذا صحيح. وانا قلت انها راشدة وتعرف ما تريد.
- لكني ما كنت اتيت لو انك رفضت يا بني. الا تقرّين بذلك؟
- لا اقرّ بذلك.

اجابتها بحدة.

ولكنها كانت ترتجف من الغيظ داخلياً لأن شيرلي كانت تخطط مؤامرة

لتحملها المسؤولية في عدم انصياعها هي لأوامر ماكس. واضافت بنّي:
- حاولت جاهلة ان اثنيك عن المجيء ولكنك كنت مصممة.
قال تريفور:
- هذا صحيح. كنت عنيدة. لا يجب ان تلومي بنّي مهما حدث.
- مهما حدث.
قالت بني.
- هل يعني ذلك اننا لن نصل لودان؟
- قلت ذلك لمجرد الكلام. لا ادعي بأني اعرف هذه المنطقة، او بأن غراهام لا يعرفها ايضاً. ما اعنيه فقط هو اننا ضعنا واننا لن نصل قبل الليل حتى اذا وجدنا طريقنا.
- سنمضي الليل في لودان.
قال غراهام ذلك ليخفي ارتباكه بعد ان كان يؤكد لبنّي بأنه يساوي الادلاء في معرفة الطريق. واحست بالشفقة عليه. اردف غراهام يقول:
- لا اقول اننا سننجح في ذلك قبل الليل، ولكن فقط اذا عثرنا على الطريق الصحيح.
كانت تلك المسافات الشاسعة مغطاة بالاعشاب اليابسة واشجار العليق، واقرت بني مرغمة بحكمة ماكس في اصراره على استخدام الدليل. فأدلاء المنطقة يعرفون كل شبر من الأرض، ولهم غريزة غريبة في اقتفاء الآثار وسط الأدغال والمستنقعات.
لحسن حظهم كانوا قد اتوا بالوفير من الطعام، وبالمشروبات الباردة والساخنة. وعندما اعترف غراهام بفشله جلسوا وتناولوا شيئاً من الطعام. كانت بني كل ذلك الوقت صامتة اما الثلاثة الآخرون فحاولوا تلطيف الجو بقليل من المرح والثرثرة. ولم تمض برهة حتى خيم السكوت فوق رؤوسهم.
- هل استرحت الآن؟
سأل غراهام شيرلي:
ولاحظت ان اهتمامه بشيرلي فاق الحد الذي نصحته به قبل الرحلة.
- اشعر بتحسن لأننا جالسون.
كانت ملتصقة به تقريباً وقدم لها قطعة ساندويش.

- هل سنمضي الليل هنا يا غراهام؟
سألته شيرلي مستوضحة وآملة في آن واحد.
- شعرت بني بجفاف في حلقها ولم تستطع ابتلاع الأكل. حتى القهوة لم تستمرئها، وتضايقت من نفسها لأنها لم تعرف سبب اكتئابها.
اذا لم تكن لماكس سلطة عليها فلماذا تحسب له هذا الحساب وتتخوف من مواجهته؟ اذ انه سيصب جام غضبه على شيرلي لا عليها. وبالرغم من كل هذا التحليل والتأويل لم تقتنع بني بالنتيجة. وخوفها من ماكس ليس بسبب شيرلي بقدر ما هو بسبب الاساءة الى علاقتها هي معه حيال زواج والدها. وحتى هذا الاستنتاج لم يقنعها، واخيراً تقبلت الحقيقة المرة.

٦ ـ المأزق. . . والرجل اللغز

بالرغم من ان ماكس أكد لبنّي انه لن يبعث بنجدة لانقاذهم، كان رجاله يشقون طريقهم باستعمال الفؤوس والبلطات في تقطيع الاغصان المتشابكة في تلك المناطق الساخنة من الدغل حيث يغلي الكبريت. كانت بني والباقون جالسين كومة واحدة. وعندما بان القمر أصرت بنّي على ان يجربوا حظهم في السير من جديد. الا انهم كانوا يدورون في نفس المكان دون ان يدروا عندما سمعوا صوتاً يناديهم عن بعد. فارتمت شيرلي على الارض مغمى عليها.

يا للسماء. . . بدأت فرائص بنّي ترتعد لدى سماعها الصوت واحتمال ظهور ماكس امامها خارجاً من الظلام. ما عساه يقول اذا رأى شيرلي على هذا الحال؟ فصرخت بغراهام وتريفور ان يعتنيا بشيرلي فوراً، ولكن شيرلي كانت في اغماءة وكل ما عملاه هو انهما حملاها بين ايديهم عندما وصل اول افراد النجدة.

ـ جان، كيف وصلتم بهذه السرعة؟

ـ عاد السيد ردفيرن بعد الظهر وفي اول الليل طلب الي ان اجمع الرجال لنخرج ونبحث عنكم. جنّ جنونه لتغيب الآنسة شيرلي في الرحلة. . . وهاج حتى انه فقد لون وجهه. . .

ورفع جان مشعله ورأى الشابين يحملان شيرلي فخرجت من حنجرته أنة رعب وقال:

ـ الآنسة متألمة؟ السيد ردفيرن سيصاب بأكثر من نزوة جنون الآن. . .

برز ماكس من الظلام حاملا مشعلا يتبعه فليكس ومعه زنجيان قويان

هما موزز وولسون اللذان اكتسبا شهرة باخلاصهما ومهارتهما كدليلين.

ـ ما هذا؟ ماذا جرى لشيرلي؟

وسلط الرجال المشاعل على شيرلي فتحركت عيناها وفتحتها وهي تتمتم:

ـ ماكس؟ انت اتيت لي، اعرف ذلك.

جمدت بني في مكانها لهذه التمثيلية وشعرت ببرودة تسري في ظهرها.

اضافت شيرلي تقول:

ـ ما كان يجب ان آتي الا ان بنّي رأت اني استطيع مرافقتهم.

ومدت يدها لتتلمس يد ماكس. فقاطعتها بني صارخة:

ـ هراء. لم اقل شيئا كهذا. كيف تجسرين يا شيرلي على قول ذلك؟

ـ جان، موزز، خذا شيرلي. . . احترسا.

ـ ربما استطيع المشي اذا وضعتموني على الارض. . . أوه.

ـ ما بك؟

انحنى ماكس ليتبين موضع ألمها.

ـ انه. . . انه ظهري.

ـ لم يحدث لظهرك اي شيء.

قال تريفور بدهشة.

ـ ظهري يؤلمني جدا يا تريفور.

نظر غراهام في وجه بني وصرخ موجها كلامه الى شيرلي:

ـ كيف آلمت ظهرك، ولماذا لم تقولي شيئاً في حينه؟ لم تتكلمي عنه الا الآن.

ـ لا يهم ذلك كيف ومتى تأذت. اعطياها الى جان وموزز.

تكلم ماكس بجفاء، ولكن بصوت خافت لا يكاد يخفي غيظه. تناولها جان وموزز واختفيا معها في الظلام.

وسألهم ماكس:

ـ هل جميعكم بخير؟

اجاب غراهام وتريفور بأنهما على احسن حال، اما بنّي فظلت صامتة.

رفع ماكس المشعل امام وجهها ومن ثم سلط ضوءه على جسمها من رأسها حتى قدميها وقال:

- سألت اذا كنتم بخير.
دلّ صوته على ثورة الغضب المتمكنة منه وارادت بنيّ ان تدعي بأنها تأذت هي الاخرى، الا انها اجابت بعد ان ترددت قليلاً:
- شكراً، ليس بي شيء.
- اذن، لنتحرك نحو سيارة الجيب الموجودة على الطريق.
- الطريق؟
سأل غراهام باستغراب:
كم يبعد عنا هذا الطريق؟

- اقل من كيلومتر.
وصلوا بيوتهم عند الفجر، وحمل ماكس شيرلي من سيارة الجيب وادخلها البيت وظهرت تريزا والخوف يملأ عينيها الواسعتين.
- يا الهي! هل حدث لها حادث؟
- ستكون بخير. ناوليها شيئاً منعشاً وامسحي وجهها بماء ساخن.
وضع ماكس شيرلي على ديوان وفتحت عينيها وكافأته بابتسامة جميلة:
- انت طيب معي يا ماكس... ولطيف. انا الآن احسن حالاً.
- كلا، لست احسن.
قال غاضباً:
- لا تغضب مني والا سأبكي. تملكنا الرعب والبرد. ضللنا اتجاهنا ساعات وساعات وظننت اننا سنموت هناك ولن يجدنا احد!
فقالت بنيّ:
- ما كان مات انسان. كل ما هنالك هو اننا كنا امضينا ليلتنا هناك ووجدنا طريقنا في ضوء النهار.
خرجت تريزا لتأتي بما طلبه ماكس بينما كان يجس نبض شيرلي. وفكرت بني ان تخرج على الفور فتنام ليلة تستريح فيها من عناء الرحلة وتستعد في يومها التالي لمواجهة غضب ماكس.
- طابت ليلتكما. أرجو ان يتحسن ظهرك.

تلاقت عينا بنيّ بعيني شيرلي واغمضتهما هذه الاخيرة فتأكدت بنيّ من التمثيلية التي لعبتها شيرلي لتثير مشكلة بينها وبين ماكس. وقد تلعب غيرها فتختلق مشاكل وشكوكاً.
انتصب ماكس وسلط على بنيّ نظرة باردة كالجليد، وسألها ان تبقى حيث هي لأن لديه ما يقوله لها.
- ربما نستطيع تأجيل ذلك الى الغد...
- أفضل قوله الآن. ارجوك ان تبقي حتى انتهي من شيرلي.
- اني منهوكة القوى.
- لن يطول ما اقوله اكثر من دقيقة.
جلست بني مستسلمة. تفادت شيرلي نظراتها. وكانت تراقب تريزا وهي تنظف وجه شيرلي بالاسفنجة. وتساءلت اذا كان وجهها هي خاليا من الغبار والوحل. قدمت تريزا لشيرلي شرابا منعشاً ورافقتها الى غرفتها.
هل صدق ماكس حقاً ان ظهر شيرلي يؤلمها؟ لا تعتقد ان هذا سيفوت عليه اذ انه لم يفحص ظهرها بعد.
كانت بني متعبة كثيرا ولكنها تأثرت بمكر شيرلي التي قامت بهذا الدور القذر بعد ان اشفقت عليها لأنها كانت تتلهف الى صداقتها. ولكن شيئاً في ضمير بنيّ لا يسمح لها بان تحكم على شيرلي حكماً قاطعا، وكانت تبحث عن عذر يبرر مسلكها.
في كل الاحوال لم يسمح الوقت للتمادي في تحليل هذا الوضع، اذ ان ماكس وقف امامها بنظرته الباردة بعد ان خرجت تريزا مع شيرلي.
سخرت من نفسها لأنها سمحت لماكس ان يزعجها ويبقيها رهن تصرفاته، فارادت ان تسبقه:
- اعرف ما ستقوله واعترف انه كان من الحكمة ان نستأجر دليلاً. الا ان هذا لا يمنع من ان اكون سيدة نفسي وان اتصرف بأموري حسب اهوائي. فاذا كان ما ستوجهه إلي من هذا القبيل، فوفر على نفسك هذا العناء.
كان واقفاً فوقها وعيناه تقدحان غضبا وغطرسة. ولكن بنيّ ترى نفسها فريسة قامته الشامخة وقوته الجذابة التي تجعلها اضعف من ان تطرده من ذهنها.
- ما أنوي قوله يتصل بأمر اهم بكثير من مجرد انتقاد.

كان صوته خشناً وقاسياً:
ـ ولكن عنادك في مقاومة رغباتي يدفعني الى اتخاذ منحى جديد. متى تنتهي مدة خدمتك هنا؟
ـ مدة...؟
اختفى الدم من وجهها كلياً، ورأت الشماتة التي واتته ولكنها لم تجبه اجابة مباشرة. قالت:
ـ لا افهم ما تحاول قوله.
نظر اليها باستهزاء ولوى شفتيه احتقاراً، وقرأت افكاره قبل ان يبدأ بالكلام.
ـ عباراتك تكشف انك تفهمين ما أعني تماما. بما انك تصرين على تحدي نصحي، وبالتالي تورطين نفسك وغيرك ايضا في مخاطر، ارفض ان تبقي تحت سقفي. متى سينتهي العمل الذي بين يديك الآن؟
ـ تريد أن تفهمني اني لا استطيع البقاء في هذا البيت؟
أحست برطوبة الليل تتسرب الى جسمها والبرد يخترق عظامها:
ـ قالت والدتك اننا سنمكث هنا مدة سنة.
ـ ان والدتي لعلى خطأ. لن احتمل هذا الاستهتار المقصود لرغباتي. مراراً وتكراراً قدمت النصح في مصلحتك وسلامتك، ولكنك متعنتة في اعتقادك انك تفهمين اكثر مني وتتمسكين بطرقك. وتناسيت انك ضيفة علي وان عليك تقديم شيء من الاعتبار لي. وعليه، وبما انك اهملت هذه الناحية، وبما اني لم تعد لي اية رغبة في مواجهة متاعب اخرى، اكون ممتناً اذا أنت وجدت مكانا آخر تعيشين فيه.
ارتبط لسان بنّي ولم يدر في خلدها ابدا ان ماكس سيصل به الأمر الى حد اتخاذ مثل هذا الاجراء. وكانت صادقة مع نفسها اذ انها اقرت ضمنا ان ردّ فعله معقول وحكمه عليها في محله. ولكنها لا توافقه على انها تتحداه متعمدة، ولو انها تسببت له في بعض المتاعب. مثلاً، عندما اعتبرها ماكس مسؤولة عن ضياعها مع امه ذات مرة. ولولا شرود ذهن نورا ونسيانها بأن بنّي كانت قد حذرتها، لما حاسبها ماكس على ذلك. وبنّي لا تلومه على شيء. وله كل الحق في تذكيرها بأنها ضيفته ومن واجبها ان تحترمه. اما من وجهة نظرها فالاشياء تحدث بعكس ما تتوقع لسوء حظها. فهي توقعت

مثلا ان تلقى فيه اخاً، واخيرا توقعت ان تدوم الهدنة بينهما.
رفعت نظرها اليه ومرارة الندم والأسى تأكل قلبها، لأنها تسرعت في الاجابة بدل ان تتقبل انصباب جام غضبه عليها وبدل ان ترى نفسها في هذا المأزق الحرج:
ـ ستجد نورا... والدتك، صعوبات في تسيير العمل اذا انا عشت في غير هذا المكان.
رفع حاجبيه وقال بهدوء تام:
ـ هل كنت في انكلترا تعيشين في بيت واحد مع والدتي؟
ـ كلا. كنت مع والدي.
ـ وهكذا كنت تذهبين الى عملك كل يوم. أليس هذا طبيعياً؟
كان صوته رغم جاذبيته بارداً، وكان تلون نغماته وهو يتكلم احد من السكين في قلبها. ورأت نفسها مرغمة على ان تجيب على سؤاله فقط بايماءة من رأسها.
ـ في هذه الحال لا أرى فرقا بين هنا وانكلترا. قد تجدين مأوى في فندق او في بيت في روزو او قريباً منها.
شعرت بالبرد في كل انحاء جسمها، وكاد التعب يجعلها تغط في النوم حيث هي. تنهدت وقالت انها تريد ان تذهب لتنام، ولكنها اضافت قبل ان تذهب وهي نصف نائمة:
ـ أبي، هل سيبقى ابي هنا؟
وارادت ان تقول ايضا «مع ابن زوجته» ولكنها عدلت.
ـ بل سيفضل والدك البقاء معك في الفندق.
ازاحت بيدها خصلة من شعرها جانباً بحركة بطيئة جداً. ما بها؟ أخذ كل جسمها ينتفض وهي تقول:
ـ اذا كان هذا كل ما اردت ان تقوله لي فأنا ذاهبة الى الفراش.
نهضت ولكنها عبست بشدة. شعرت بأن ساقيها لا تحملانها وامسكت بالكرسي كيلا تسقط:
ـ آسفة لكل ما حصل. ستكون شيرلي بخير... بعد ان تستريح.
ـ ليس بشيرلي أي شيء.
قال باقتضاب:

ـ ولكنها لو تأذت حقا لألقيت كل الملامة عليك.
لوت شفتيها الجميلتين وقالت:
ـ كنت اعلم انك ستفعل هذا.
ـ أنت اكبر منها وكان عليك ان تتعقلي ولا تسمحي لها بالمجيء معكم في مخاطرة جنونية كهذه. ما الذي جعلك تأخذينها مع العلم بأني كنت أمانع؟
رأت بني شرايينه تتراقص تحت جلد وجهه، وكان يجهد نفسه لئلا ينفجر من الغضب. وارادت ان تتخلص منه قبل ان تنهار كلياً، اذ انها كانت متعبة ويائسة تشعر بضعف شديد.
ـ ربما كانت شيرلي ستوضح لك كل شيء في الصباح.
بزغت الشمس وراء الجبال ورغم تعبها اطالت بني النظر في هذا المشهد العجيب. كانت السماء كأنها مطرزة بخيوط من ذهب، والجبال غارقة في الضباب فوق البحر الكريبي الهادىء. ستحرم من هذه المشاهد الخلابة اذا هي عاشت في فندق بالمدينة. تذكرت تلك الساعات الحلوة التي كانت تمضيها في السباحة مع ماكس، وكانت تأمل في الخروج بقاربه الزجاجي القعر لتستكشف اغوار الحديقة المرجانية. لم تتمالك بني من البكاء اعياء ويأساً وقالت:
ـ يجب ان اذهب.
ولكن ماكس اوقفها وقال:
ـ لا اريد اي ايضاح من شيرلي. اريد ايضاحاً منك. انت شجعتها لتتحداني. هل كان ذلك اخذاً بالثأر مما تعتقدين انه تدخل مني في شؤونك؟
ـ تدخل؟
ـ أي اصراري على استخدام دليل. قد تعتبرين هذا تدخلا في ارادتك، الا اذا كنت مخطئاً.
كان انطباعها انه يحاول كبح جماحه. حاولت ان تمشي ولكنها لم تستطع دون ان تتكيء على الكرسي.
ـ آسفة لأننا لم نتمثل بنصيحتك في استخدام دليل.
وحاولت المشي مرة ثانية ولكن قدميها ظلتا مسمرتين في مكانها. لم تكن تنظر في وجه ماكس خشية ان يرى الدموع في عينيها. واضافت تقول:

ـ اما قولك اني دفعت شيرلي لتتحداك، فلم يكن الامر كما تظن، الا انني اعرف انك لن تصدقني.
ـ لن أصدقك لأنك فعلت هذا لازعاجي.
توقف فجأة عن الكلام اذ تبين ما بها من سوء:
ـ هل انت مريضة؟
ـ انا، انا...
التفتت اليه واصابها دوار. ارتخت يداها وكانت على وشك ان تسقط لولا ان ماكس اسرع فأمسك بها وحملها الى غرفتها. مددها على سريرها وجلس على حافته.
ـ ستجدين لنفسك زوجاً يوماً ما، واول شيء يفعله هو ان يدخل في عقلك ذرةً من التعقل اذا اكتشف ما انت عليه من طباع!
كان وجهه يشبه الغيوم المرعدة وشفتاه ترتعشان.
ـ لا افهم مسلكك. انك تدهشينني بمنطقك ورزانة تفكيرك، كما تذهلينني بأعمال رعناء متهورة وصديقك ليس أفضل حالا منك. ألم تقولي انه يعرف الطريق؟ لو انكم اتبعتم ارشادي لما وقعتم في هذه الورطة. كيف تشعرين الآن؟ هل انت مريضة ام انه التعب؟
نظرت اليه من خلال دموعها اذ ظنت انها رأت بصيصاً من الاشفاق في عينيه مع ان صوته كان فظاً.
ـ هل تشعرين بأي ألم؟
تنفست طويلاً قبل ان تجيب:
ـ اني متعبة فقط. متعبة وتعيسة.
لم ترد ان تستدر شفقته، لكنها لم تتمالك من البكاء.
ـ لم تكن هناك حاجة لكل ذلك، وسيوقعك تمردك هذا في مأزق حرجة جدا ذات يوم.
ـ ماكس... ارجوك، كفى!
قالت متوسلة وهي تحاول ان تضبط اعصابها كيلا تنفجر بالبكاء.
واضافت بصوت خافت:
ـ فقط... فقط لو انك عاملتني كأخ لأخذت بنصحك.
ولكن ما بها؟ لماذا تذكره بأشياء تضعه في موضع أخ؟ اما زال غاضباً؟

- يجب ان تسرّي بأني لست اخاك، والا تسببت لك في ازعاج سيلاحقك مدى اسبوع كامل.

توردت وجنتاها قليلا وقالت:

- هل من الممكن ان تساعدني تريزا في خلع ثيابي؟

لم تكن تملك القوة الكافية لتتحرك لأن ثيابها كانت ملتصقة بجسمها بسبب الرطوبة.

- آوت تريزا الى فراشها. سهرت معنا طوال الليل ونحن ننتظر عودتكم!

لم يكن ينتظر عودتنا جميعاً، بل عودة شيرلي. انه مسؤول عنها وقلق بسببها ولهذا عاد الى البيت ابكر مما كان ينوي.

- عدت الى البيت قبل موعدك ولم تكن تعرف ان شيرلي كانت معنا في الرحلة. قال جان انك عدت لأنك كنت قلقا، واذا لم يكن قلقك بسبب شيرلي فما الذي أقلقك اذن...

حتماً لم يقلق بسببها هي. ألم يؤكد لها انه لن يرسل فرقة نجدة لانقاذهم اذا هم ضاعوا؟ لم تتغير ملامح وجه ماكس لتدل على انه تأثر بقولها ولم يجب على سؤالها.

- نامي الآن. سآتي لك بشراب منعش وبعض الماء الساخن.

حاولت ان تنهض لتخلع ثيابها ولكن ضعفها منعها من ذلك. عاد ماكس بعد لحظة ووجدها متمددة على السرير لا داخل الفراش.

- ماذا، ظننتك في الفراش. لا تستطيعين البقاء هكذا بقية الليل.

كان صوته اكثر قساوة من ذي قبل. وقارنت معاملته لشيرلي بمعاملته لها هي. لم يلق حتى ولا نظرة علي وما كان اغتم لو متُّ حرقاً في البحيرة. عند ذلك فقط انهمرت دموعها سيولا، ورق صوته قليلا عندما كرر سؤاله لماذا لم تندس في الفراش.

- لا... لا استطيع الحركة وما من احد يساعدني.

لم تعد تهتم بما تقول. كان همها الوحيد ان تجعله يشعر بالذنب ويخجل من نفسه:

- طلبت من تريزا ان تعتني بشيرلي، وعليّ انا ان اتدبر امري وحدي!

رأت من خلال دموعها تغييرا طفيفا في تقاطيع وجهه وفوجئت بطلب

اعتبرته مستهجناً:

- اجلسي! سأساعدك انا شخصياً.

جلست بدافع من الاستغراب اكثر من أي شيء آخر. اخذ يفرك وجنتيها بيده وناولها منديله فمسحت عينيها وانفها واعادته اليه.

- سأتدبر أمري.

حتى وهي تقول هذا كادت تسقط فسارع وطوقها بذراعه. واستندت عليه:

- لا ادري ما حل بي. اعتقد انه التعب فقط.

- فقط يا بنّي؟

كان صوته خافتاً واهتمامه ظاهراً. اختفى من عينيه ووجهه كل اثر للغضب، وحلت محله نظرة حنان ولمسة عطف وهو يمرر يده على ذراعها.

- انت متعبة، هذا لا شك فيه، ولكنك كنت قلقة على شيرلي وهذا سبب توترك. والآن اخلعي كنزتك؟

امسك بكنزتها وبدأ بخلعها. حاولت منعه الا انه تابع عمليته بكل هدوء. وحاول ان يفك ازرار تنورتها فارادت ان توقفه:

- يا عزيزتي بنّي.

قال بصوت غليظ.

-يبدو ان هدفك الرئيسي في الحياة هو تحويلي الى اخ لك. قولي لي الآن، هل تعترضين على اخيك اذا رغب في مساعدتك في ظرف مماثل؟

رفعها الى السرير فسقطت التنورة وبقيت بنّي في التنورة الداخلية.

- طبعا لا، لأنك لست...

- هذا يعني...؟

توقف ورأته يعبس.

-لا تعرفين حتى أية ثياب تلزمك؟ في الحقيقة يا بنّي تستحقين ان اصفعك... صفعة قوية!

كان وجهه قريبا من وجهها وفمه مطبقا تماما وعيناه تقدحان ناراً.

- اخلعيها الآن!

لم تقاوم وبعد بضع دقائق كانت في الفراش. ادخلت معها تحت الغطاء قنينة ماء ساخن ووضعتها بجانبها لتدفئها، وتناولت شراباً منعشاً لم يرق لها

الا انها ابتلعته علماً منها ان ماكس سيرغمها على ذلك. اجلسها لتتناول المنعش واسندها بذراعه فأحست بدفء ملامسة يده مما ادخل سروراً الى قلبها. وارقدها ثانية واضعاً رأسها على الوسادة:

- هل مرتاحة انت الآن؟

اشارت بنعم وجفناها نصف مغمضين ويدها على فمها لتوقف تثاؤباً، وقالت نصف نائمة:

- شكراً، انا احسن بكثير.

وابتسمت لتجاوبه اللطيف:

- اشكرك على كل ما تحمله من اجلي.

لم يجب على هذا، وطلب منها ان تلازم الفراش اليوم كله، واليوم الثاني اذا ارتأى ان ذلك ضروري. حتى ألطف نصائحه يلقيها بلهجة الأمر. هذه خصلته، تتأكد بنّي من رسوخها فيه يوما بعد يوم. غير انها لم تشعر بنفور من النصيحة التي اسداها الآن.

- سأكون في احسن حال بعد نوم هادىء. لا تنس ان لدي عملا اقوم به وسيكون تغيبي مضايقة لوالدتك اذا انا مرضت.

- اذن، دعيها تتضايق.

وقال بهدوء:

- انا الذي يقرر اذا كنت مستعدة للعمل، وفي خلاف ذلك ستبقين حيث انت.

- أوه، لكن...

- اعملي ولو مرة واحدة كما يطلب اليك.

نهرها بعصبية وانحنى فوقها ورتب غطاء الفراش وقال:

- نامي الآن. وإياك ان تنهضي بدون اذن مني!

أغلق خشب النافذة الخارجي فأظلمت الغرفة وخرج واغلق الباب وراءه.

قال لها ان تنام، وقد تنام اسبوعا كاملا... لولا تشوش افكارها التي أبقتها يقظة فترة لا بأس بها بعد ذهابه. قال جان ان ماكس كان كثير القلق حيال الرحلة، فقطع زيارته للمارتيك وعاد الى بيته قبل يوم من موعده... وهذا يعني ان علة قلقه لم تكن شيرلي، لأنه لم يكن يعلم انها

ذهبت معهم، فهل هناك سبب شخصي جعله يعود مبكراً؟ قد يكون محتملا انه استبق حدوث متاعب لهم في رحلتهم، فعاد ومهد كل شيء لاغاثتهم اذا رأى انهم يحتاجون اليها. او لأنها ضيفة في بيته، يعد نفسه مسؤولاً عن سلامتها، وهذا الاهتمام يوجهه لها كما يوجهه لأي كان اذا كان هو مسؤولاً عن سلامته. ارادت ان تكون علة اهتمامه بها لشخصها هي لا لغيرها، وخاب ظنها في ذلك. غير ان ملاطفته لها عوضت عليها هذه الخيبة: والآن، هل ماكس جاد في طردها من البيت؟

في كل الاحوال لم تزعجها هذه المشكلة في الوقت الحاضر، لأنها عندما فتحت عينيها في ساعة متأخرة من النهار أحست بألم شديد واغمضتها حالا. كان كل جسمها يؤلمها وكانت تشعر بوجع في رأسها كأن أحداً ضربها بمطرقة، وبصعوبة كبيرة مدت يدها واشعلت النور وضغطت على زر الجرس. دخلت عليها تريزا فوراً، ربما انصياعاً لتعليمات ماكس.

- سيدتي ليست على ما يرام.

وقالت بعد القاء نظرة عابرة:

السيد ردفيرن قال انك ستكونين مريضة بضعة ايام. وطلب ان اعلمه انك قرعت الجرس.

- كيف الآنسة شيرلي؟

سألتها بنّي بقلق.

ابتسمت تريزا عن اسنانها البيضاء الناصعة:

- ظلت في فراشها كل الصباح وهي الآن في الحديقة.

- اذن، هي في صحة جيدة؟

- نعم... صحيحة، ولكن السيد ردفيرن غضب منها وهي تتجول في الحديقة. سأخبره انك ناديتني.

قالت ذلك وخرجت.

اتى ماكس وفتح النافذة فغمر النور الغرفة. وقف بجانب السرير وأخذ يتفحصها. قالت له:

- تريزا اخبرتني انك قلت بأنني لن اصح قبل بضعة ايام.

- عدت من عملي قبل الغداء. تنفسك يدل على انك مصابة ببرد شديد.

ثم وضع يده على جبينها وقال:
ـ ستلازمين الفراش حوالي الاسبوع.
ـ سيأتي والدي بعد اسبوع من الآن.
وقالت متحسرة:
يجب ان انهض قبل ان يأتي.
ـ ستفعلين ما اقول وأنت تحت سقفي. لكن لا موجب لطبيب. كل ما يلزمك البقاء في درجة حرارة غير متقلبة.
لم تستطع استقراء افكاره من وجهه الذي لم يدل على اي انفعال. وتساءلت اذا كان ما زال غاضباً. وقالت باستعلاء متغاضية عن شعورها:
ـ لو استطيع الانتقال الى الفندق...
ـ لا تكوني غبية مجنونة!
ادهشتها عبارته ولكنها ارغمت نفسها على القول:
ـ يسبب وجودي هنا انزعاجا لك وقلت ان علي ان ارحل.
تريث قبل ان يعلق على كلامها، وكان ينظر في وجهها وفي عينيه تأنيب وعتاب:
ـ اعتقد انه يمكن التغاضي عن نزوتك في الاشفاق على نفسك.
اجابته بحدة:
ـ لست في نزوة ولا أطلب الاشفاق لنفسي!
ـ انا مخطىء. انك تظهرين مزاجاً عصبياً.
قال ذلك باستهزاء وهذا اغضبها. وسألها فجأة:
ـ ما هي درجة ألمك؟
ـ اتألم في كل جسمي.
وفكرت انه يشمت بها.
ـ هل تشعرين بقابلية للأكل؟
كانت اصابعه تتحسس جبينها وأضاف:
ـ رأسك هذا يؤلمك جداً جداً، انا اكيد من ذلك. ولكنني سأعطيك شيئاً في الحال. هل انت جائعة؟
اشارت له بالنفي وآلمتها حركة راسها فسحب يده، ولم تعد تشعر بلمسات اصابعه.

ـ يمكنني ان أتناول شرابا، بكمية كبيرة.
قالت ذلك وهي تتوقع ان يرفض طلبها ولكنها فوجئت عندما قال:
ـ أية كمية تريدين. شراب البرتقال ام الليمون؟
ـ الليمون، من فضلك.
اتى هو نفسه بالشراب على صينية من فضة ومعه كأس من الماء.
ـ ستتناولين الحبوب اولا.
ساعدها على الجلوس ورتب الوسائد وراء ظهرها. كان لطيفا ودقيقا كالطف ممرضة، وتساءلت بيّني اذا قدم الخدمة ذاتها لشيرلي.
ـ تناوليها مع الماء.
ـ متى يبدأ مفعول الحبة ان رأسي يطرق طرقاً.
ـ ستتحسنين في بضع دقائق.
كان يراقبها وهي تتناول شراب الليمون، ثم أكد عليها ان تبقى متمددة.
ـ هل استطيع القراءة؟
سألته بعفوية.
أكره البقاء في الفراش.
ـ كلنا نكره ذلك. يجب ان تبقي هكذا مدة يومين على اقل تقدير، وقد اسمح لك بالجلوس بعد ذلك، ومن ثم سنرى.
ـ وعملي؟
ـ أمي تتدبر أمرها بمهارة، وستأتي الآن لتراك بعد ان تكون قد استراحت قليلا بعد تناول الشاي.
ـ وشيرلي ايضاً...؟ اذا رغبت هي في ذلك.
ـ كلا. الزيارة اليوم محصورة في والدي فقط. بعد زيارة والدي استرخي حتى وقت الغداء، وأمل ان تتمكني من تناول شيء من الطعام.
قال ذلك واغلق الجزء الخشبي من النافذة.
ـ ارجوك، اترك النافذة مفتوحة، لن يتأخر الظلام في كل الاحوال.
تردد ولكنه اذعن:
ـ حسناً، ولكن لا يجب ان تقرأي، هل فهمت؟
شعرت بتحسن في رأسها. ولكنها كانت واهنة القوى تشعر بألم في عدة

انحاء من جسمها.

- لا اعتقد ان في امكاني ان اقرأ، وسأحاول ان انام بعد زيارة والدتك.

- ما اطيبك الآن! هل تريدين ان أرفع الوسائد؟

حملقت فيه غير مصدقة هذا التحول الذي طرأ عليه في فترة ساعات، وحاولت ان تتبين افكاره. لا تصدق انه منذ بضعة ساعات أنذرها بالرحيل من منزله . . . والآن يعتني بها شخصياً بالرغم من وجود من يستطيع القيام بهذا العمل. ان يقوم على خدمتها هو نفسه، وان يقدم لها الشراب ويرتب الفراش، وان يفتح او يغلق النافذة، شيء لا يستوعبه العقل وليس من عنديّاته. الخدم في بيته ومزارعه كثيرون، يتراكضون لتلبية رغباته وطلباته . . . وهو يقوم شخصياً على خدمة فتاة لم يحبها منذ اللحظة الاولى من لقائها.

- احتفظ بالوسائد هكذا لحين خروج والدتك، واشكرك لاهتمامك حتى بالوسائد.

ابتسم ووجدت ان ابتسامته كان فيها تعبير سخرية، وعلى الفور شعرت انها فقدت ثقتها في نفسها وانها خرقاء ومتلبكة. تحسده على ثقته في نفسه واستعلائه على الغير وتحسده حتى على عجرفته، وترى في كل ذلك نباهة وذكاء وتربية رفيعة . . . يضاف الى كل ذلك شموخ قامته وجمالها، وتناسق جسمه وتقاطيع وجهه الصارم. له قوة قراءة افكار الغير مهما حاولوا اخفاء مكنوناتها، وذلك من خلال نظراتهم. وهذا ما يجعل الدم يندفع الى وجهها فيتورد، او يختفي منه فيشحب. ورأى الآن ان وجهها محمر، فسألها فيما تفكر. قالت:

- ليس في أي شيء ذي بال.

- لا بل انه ذو بال، لأنه جعلك تحمرين.

- هل احمر وجهي؟

- لا تكوني وجلة. تعرفين ذلك تماماً.

برقت عينا بني بحدة لكنها عافت الاجابة بسبب تعبها، فسكتت على امل ان يتركها. وبحركة لم تتوقعها منه انحنى وامسك بيدها. وضعها في يده وربت عليها ثم شدها قائلاً:

- انت تعبة.

وسحب الوسائد من وراء ظهرها.

- وسأخبر أمي ان تأتي لتعودك بعد الغداء. تمددي الآن واستريحي.

تكلم بلطف جم ثم اردف:

- أرى عندك استعداداً للنوم.

وبكل رعاية رتب غطاء السرير وقال:

- استريحي جيداً يا بني، وسأعود اليك بعد حوالي الساعة.

تبعته بنظرها وهو يخرج. له قامة رشيقة. ولكن ما حيرها فيه هو عدم الارتباط العاطفي بشيء. ولكن ماكس الجديد . . . قذف بها الى عالم كله بلبلة وارتباك.

٧ - قلب من حرير

كانت بنيّ مريضة حقاً طيلة الأيام الأربعة التالية. لم تكن لها رغبة حتى في الحركة، ولا في الجلوس مستندة الى الوسائد. وكان ماكس مطمئناً على حالها، ولم ير حاجة لاستدعاء طبيب. كان هو نفسه يحدد جرعات الدواء حتى اذا ما اطل اليوم الخامس كانت النتائج مذهلة حقاً.

- هل استطيع ان انهض قليلاً؟

وسألته بعد ان تناولت وجبة طعام:

- اشعر باني على ما يرام.

- ستشعرين بوهن كبير اذا ما نهضت الآن. ارى ان تنتظري حتى يوم غد.

ضبطت ميلها الى الجدل كيلا يؤثر ذلك في التقارب الودي الذي دام اربعة ايام كاملة، وجلّ ما كانت تتمناه هو ان يكون ماكس قد عدل عن فكرة ابعادها عن البيت. واذا صح حدسها، فأي مقاومة من جانبها بعد ذلك سترغمه على تغيير رأيه. اصبحت قضية بقائها في البيت او رحيلها عنه ورقة في يده، او سيفاً مسلطاً فوق رأسها. فكرت في توجيه سؤال عن هذا الموضوع لكنها عدلت في اللحظة الأخيرة.

- هل تسمح لي بالقراءة اذن؟

ابتسمت له ولم يرد لها ابتسامتها، لكن عينيه كانتا حنونتين وشفتيه مرتاحتين.

- بكل تأكيد، لكن توقفي حالما تشعرين بأقل اعياء. صحتك في تحسن مستمر ولا نريد انتكاسات.

تفرّس فيها وفي نظرته شيء من السخرية.

- كنت نموذجاً مثالياً للمريض، ولم تتسببي في اي جدل طيلة ايام كاملة.

لم تقل بنيّ اي شيء بخصوص هذا التحول، ولكنها قالت انها قلبت صفحة جديدة.

- ليس هذا تماماً. انك لم تقاتليني لأنك ضعيفة فقط.

- انك على خطأ.

- أيوجد سبب آخر؟

سألها مستوضحاً:

- ما هو هذا السبب؟

قالت مبتسمة:

- ربما لم ارغب في مقاتلتك.

- سيتحقق هذا عندما لا ترغبين في مجادلتي طوعاً.

- هل تعتقد انه يسرني ان اجادلك كل الوقت؟

كانت جالسة وظهرها الى الوسائد، وعلى كتفيها سترة نوم زرقاء وشعرها مفروش على الوسادة. قبل ذلك كان قد ناولها دواءها الذي لم تستذوق طعمه الكريه، ولم يأبه بتذمرها منه كما لم يأبه بتكشيرة الاشمئزاز التي ظهرت في وجهها. ولما بقي حيث هو فسرت بني ذلك بأنه يريد اطالة مكوثه:

- يظهر لي انك تتمتعين بمجادلتي، والا لما بقيت تجادلين وتحاورين وتدخلين معي في نزاع مستمر.

- انا . . . اوه، هل تضع كل اللوم عليّ؟

قالت وعيناها تبرقان بشيء من الحدة:

- انت البادىء دوماً.

- هذا دليل حسن.

جلس ماكس على طرف السرير وتابع:

- انت الآن بني الأصلية. سأسمح لك بالنهوض قليلاً غداً.

ضحكت وضحك معها ماكس ايضاً، وهو نادراً ما يضحك. تناول يدها كما كان يفعل كل يوم اثناء مرضها، وكان يمرر اصابعه على قفا يدها.

تطلعت فيه وفي عينيها رجاء وقالت:

- ماكس.
- نعم يا بنيّ؟
- الا يمكننا ان نظل هكذا؟
- طالما انت في الفراش؟
- كلا!

حاولت ان تظهر هادئة وطبيعية، ثم اضافت:

- انت تفهم قصدي. انا... انا ارغب في ان نكون مثل...
- مثل الأخ والأخت؟

كان الهزء بادياً على سحنته. اضطربت بنيّ وتساءلت عما اذا كان قرأ افكارها. لا يجب ان يحزر ما في فكرها، فحولت الحديث الى مجرى آخر.

- هل سيسكن والدي... الفندق؟

خرجت الكلمات من فمها تباعاً، وتسارعت معها نبضات قلبها. حبست انفاسها وهي تنتظر.

- اعتقد انه يوجد مكان كاف ليتسع له هنا.

اثّر هذا الجواب المادي، فيها، لم تدر معه ما تفعل غير الشد بيدها على يده.

- اشكرك يا ماكس.

تكلمت عيناها عن عرفانها للجميل اكثر من اي تعبير كلامي، واضافت فقط:

- ازحت عبئاً ثقيلاً عن كاهلي.

ومع ذلك لاحظت شفتيه المزمومتين وعبوساً خفيفاً على وجهه، فانقبض قلبها واستخلصت من ذلك ان ماكس مصر على عدم السماح بالزواج، ولكن ترحيبه بوالدها في بيته سيعطيه فرصة التعارف عليه، وربما فرصة الموافقة على بقائها. هل لها الجرأة الكافية لتسأله عن نفسها؟ انفرجت اسارير وجهه ثانية وكان ينظر اليها بشكل خاص، لماذا؟ هكذا نظر اليها في الليلة الأولى من مرضها، عندما صرخت من الألم وكان هو يهون عليها ويواسيها.

- ما بك يا بنيّ؟ اين تشعرين بالألم؟

رآها ترتعش قليلاً عندما سألها، ودلّ صوته على غمّ حقيقي.

- في كل مكان.

امتلأت عيناه حناناً عميقاً. فتشجعت وسألته:

- وماذا عني... هل فعلاً عنيت ان عليّ ان اجد... مكاناً آخر لأعيش فيه؟

نظر الى عينين متوسلتين واستغرب كيف سألته واصابع ايديها متشابكة.

- تستطيعين البقاء هنا يا بنيّ، ولكن اريد وعداً منك بأنك ستتبعين نصائحي... دائماً، مهما كانت الظروف. هل مستعدة انت لاعطائي هذا التعهد؟

تنفست الصعداء واومأت بالايجاب.

- اني اعدك يا ماكس. واعترف ان عدم استخدام دليل كان خطأ.

اقتنع بهذا وظلا صامتين برهة من الزمن بدا خلالها ان ماكس يتردد في الخروج، حيث مضى عليه اكثر مما ينبغي. هل يتمتع برفقتها؟ وشيء آخر، لماذا لا يسمح لأحد غيره بتقديم الدواء لها؟ وعندما عزم على تركها دخلت والدته عليهما بينما كان يسحب يده من يدها. ابتسمت شفتاها الشاحبتان ابتسامة خفية، ولم تفه بأية ملاحظة كيلا تربكهما.

- كيف المريضة اليوم؟

اسرع ماكس وقدم لها كرسياً وقربه من السرير، وبقي هو واقفاً دلالة على انه ذاهب.

- انا احسن بكثير، شكراً.

ونظرت الى ماكس مبتسمة:

- بفضل طبيبي الممتاز.
- ماكس ماهر جداً في الطوارىء.

قالت نورا بفخر:

- افضّل ان اكون بين يديه على ان اكون بين يدي اي طبيب آخر، الا في عملية جراحية.

ولما همّ بالخروج طلبت منه والدته ان يبقى قائلة:

- هناك شيء اريد ان اكلمك به.

انتفضت بنيّ عندما رأت وجه ماكس ينقبض. فقد خمّن مثل بنيّ ان والدته ستفاتحه بقضية الزواج ولكن موضوعها فاجأ كليهما:

- هل حقاً يا ماكس ان على بني ان ترحل من هنا، ام انك عدت عن قرارك؟

ونظرت نورا بطريقة عفوية الى يد بنيّ حيث تركها ماكس.

- ستبقى بني ضيفتي.

قال وقد استعاد هدوءه بعد مفاجأة والدته:

- كيف عرفت اني طلبت اليها ان ترحل؟

- وهل سويتما خلافاتكما؟ اظن انكما توصلتما الى ذلك.

تفوهت بعبارتها الأخيرة باطمئنان ظاهر. وتابعت كلامها:

- في هذه الحال ما سأقوله اهم من ذلك. كنت تهذين يا عزيزتي عندما دخلت مساء امس...

- كنت اهذي؟

هزت بني رأسها.

- لم اكن اهذي، فقد سمعتك وانت تفتحين الباب وقلت لك اهلاً. الا تذكرين؟

- وقفت في الخارج بضع دقائق قبل ذلك كنت تهذين اثناءها يا بنيّ.

نورا لا تكذب ولكن بني دهشت لذلك. تذكرت انها نامت بعد خروج ماكس من غرفتها بعد طعام الغداء، وانها افاقت فقط عند وصول نورا في المساء.

- ربما تكلمت في منامي!

- سمّي ذلك كيفما تريدين، ولكنك كنت قلقة جداً.

ونظرت الى ابنها نظرة عتاب.

- الظاهر انك اعتبرت بني المسؤولة عن ضياعنا انا واياها. كلا يا ماكس، انا الملومة. نبهتني مرتين الى الساعة ولكني كنت مأخوذة بعملي ولم اقتنع شخصياً اننا قد نضيع حتى في الظلام. ولكننا ضعنا وتحملت بني المسكينة كل الملامة. انك اسأت معاملتها يا ماكس...

- لم يسيء ماكس معاملتي البتة.

تدخلت بني وهي تنظر خفية الى وجه ماكس اما ماكس فلم

يبد عليه اي تأثر. وتابعت حديثها مكتئبة:

- ارجو الا اكون قد اعطيت انطباعاً مغلوطاً. واذا كنت ذكرت اي شيء عن ماكس فقد كان غير مقصود.

- لا بد ان يكون له اساس.

- لماذا لم تقولي لي في حينه ان بني ذكرتك بالوقت؟

كان صوت ماكس ناعماً ادخل الرجفة الى قلبها.

واضطربت امه، ولكن بني تعرف ان نورا لا تخشى ابنها. ولا تريد خلافاً بينهما.

- انت تعرف نقائصي يا ماكس كما اعرفها انا، واحدها شرود الذهن. واتذكر الآن اني وبخت بني على تقصيرها في اعلامي عن الوقت وتذكرت كل شيء عند سماعي هذيانها ليلة البارحة. كانت قد ذكرتني بالوقت مرتين بالفعل.

خيم على ثلاثتهم سكوت مزعج قبل ان يتوجه ماكس الى بنيّ ويسألها بغلظة:

- لماذا لم تنبهيني الى غلطتي؟

من الواضح انه لم يسر عندما اكتشف انه اساء معاملتها ظلماً، فهو يكره الوقوع في الخطأ، او مجابهة حقيقة وقوعه فيه. وسألها ايضاً:

- هل كنت تقصدين ان تجعليني اسيء الظن فيك لغاية في نفسك؟

لم تجب بني بغير هز رأسها. كانت نية نورا صافية في اطلاع ماكس على الحقيقة، ولكنها اعطت انطباعاً بأن بني كانت تشكو اليها ظلمه ولو بنية سليمة. في النهاية جازفت ورفعت نظرها الى وجهه المتزمت املاً منها في ان يقدر موقفها ويتفهمه، فهي لن تتحمل وقوع صراع جديد بينهما.

يبدو ان نورا قرأت افكار بني لأنها عندما تكلمت افصحت عن نفس الشيء الذي كانت تريد قوله:

- بالطبع لم تنبهك بني الى خطأك فقد تشك في انها تريد ان تبرىء ساحتها وتضع كل اللوم عليّ انا، واذ ذاك لن تصدقها، وانت تعرف انك لن تصدقها.

تغيرت ملامح سحنته قليلاً، واذ اقر بخطإه باطناً فانه لم يفعل ذلك ظاهراً. اما نورا فقد تابعت محاضرتها:

- وفهمت من هذيان بنيّ الليلة الماضية انك افهمتها بانك لم تعد تطيق تحديها لنصائحك، ولذا اعلمتها بأنها لن تستطيع البقاء هنا ضيفة عليك. ازعجني هذا الأمر جداً. واذا ارتأيت انت ان قرارك كان حكيماً، ارتأيت انا من جانبي ان استغل اول فرصة لأؤكد لك ان بني لم تكن السبب في خلق المشاكل لك واجبارك على ارسال النجدة.
- فهمت.
كلمة واحدة تفوه بها بعد تردد طويل، وكانت عيناه تبحثان عن شيء ولكنهما استقرتا في النهاية على بني، وقد تعني هذه النظرة ان امامها مجالاً لاستئناف هذا الموضوع في فرصة اخرى، ولكنها اكدت لها ايضاً ان علاقتهما الحسنة لم تشبها اية شائبة. وفي دفاع اخير عن نفسه قال:
- كان يجب ان تطلعيني على هذا.
وكان هذا ختام الحديث وخرج ماكس وتركهما.
التفتت نورا الى بني التي قد تصبح يوماً ابنة زوجها وقالت:
- من سوء حظك انك مرضت ولكن يبدو لي ان مرضك قرّب بينكما. هل تعتقدين ان ماكس وافق على الزواج؟
- اخشى عكس ذلك لأن ماكس يعتقد اعتقاداً راسخاً ان والدي يريد مالك فقط.
تنهدت نورا ولم تقل شيئاً. ولكنها قالت بعد دقيقة او دقيقتين:
- هذا بسبب الآخرين. وارجو الا ننقسم بسبب هذا الزواج.
«ننقسم»!... شيء رهيب. كانت بني تعتبر الانقسام صدمة وقت ان كانت عدوة لماكس، اما الآن وقد توطدت صداقتهما فان الانقسام سيكون كارثة، لا لأنها تأمل ان تصبح اختاً له، بل ان مجرد الرجوع الى الوراء والى الجدل سيكون وبالاً عليها.
- قد يلين ماكس عندما يأتي والدي ويتعرف عليه.
- لست بهذا التفاؤل مثلك يا بني. اي رجل ابن اثنين وثلاثين سنة يتقبل زوجاً لوالدته بذراعين مفتوحين؟ غير اني سأتزوج من جايمس مهما حدث، الا اني آمل ان يلين ماكس.
اشفقت بني على نورا وعلى وضعها هي ووالدها فيما لو تأثرت نورا بابنها. فستكون النتيجة فسخ الخطوبة وانكسار والدها وفقدان

وظيفتها... لأنها لن تبقى دقيقة واحدة في مكتب نورا اذا حدث ذلك. اسودت الدنيا في عينيها. فبالاضافة الى ما تقدم هناك مرارة افتراقها عن ماكس... الذي لن تراه بعد ذلك ابداً. ولكن لماذا تعذب نفسها سلفاً ولم يحدث شيء بعد؟
في عصر ذلك اليوم اتت شيرلي لتراها وفي نفسها شعور بالذنب وبالعداء معاً. دخلت وجلست على كرسي بجانب السرير. لماذا هذا التباعد؟
- هل تشعرين بتحسن؟
كان سؤالها خالياً من كل عاطفة. كان سطحياً.
- احسن بكثير، شكراً.
وكان بينهما صمت مربك.
- اما انت فلم تتأذي كثيراً من مجازفتنا.
- كان ظهري يؤلمني ولكن ماكس لم يصدقني.
اخذ وجهها شكل وجه طفلة حردة وكادت تبكي.
- غضب مني كثيراً لأني ذهبت معكم.
- كنت اعرف انه سيغضب يا شيرلي.
- ظننت انه سيحقد عليك انت لأنك سمحت لي بمرافقتكم.
تعجبت بني من هذه الصراحة الوقحة فقالت:
- انت عملت كل شيء يا شيرلي حتى يغضب مني، اليس كذلك؟
- عملت ذلك كي يبعد عنك.
قالت شيرلي ذلك بسذاجة الطفل حتى ان بنيّ لم تغضب او تحقد. ولم تنس بني ان هذه الفتاة وحيدة وتائهة. هل ادرك ماكس ذلك؟ ربما، اذ تذكرت بنيّ عطفه الذي ابداه نحوها عندما عاد معها من الخليج المرجاني وعلم انها امضت طيلة بعد الظهر وحدها.
- قلت لك يا شيرلي انه لا يوجد اي احتمال في ان يحبني ماكس حسبما تفكرين.
- اعتقد انك تكرهينني الآن.
وابدت اساها بحركة التواء من رأسها.
- اعلم انه يجب ان اخجل من نفسي، ومع ذلك ارغب في ان يكرهك.

احست بني بالشفقة على هذه البنت المسكينة رغم صراحتها. سألتها بلطف:

- ماذا تجدين في كراهية ماكس لي؟

التفت شيرلي اليها بحركة عصبية وقالت:

- بدأ ماكس يهتم بك. واعتقد انه سيكرهك اكثر من اي وقت مضى بسبب سماحك لي بالذهاب وبسبب الألم في ظهري. . .

- لم يؤلمك ظهرك ولم يغم عليك. كان ذلك تمثيلية قمت بها لاستدرار عطفه.

- هذا صحيح.

اجابت بصراحة مذهلة:

- لكن التمثيلية لم تنجح، فقد اكتشفها ماكس ولكنه لم يعرف دوافعها حتى الآن.

- هل سألك عن دوافعها؟

- اعتقد انني قمت بها كي اجعله يحبني.

- وهل يعرف انك تحاولين اجتذابه ليقع في حبك؟

- الرجال يعرفون ذلك، اخطئة انا؟

- قد يعرف ماكس ذلك هو ايضاً. . .

وتذكرت بني ذلك المساء عندما امسكها وعاملها بشيء من العنف. ورنت في اذنها ضحكته الساخرة من احتجاجها، قائلاً انها كانت تمهد لذلك.

- هل تكرهينني يا بني لأنني احاول ان اجعل ماكس يكرهك؟

- كلا يا شيرلي. لا اكرهك. . .

- بل . . . تكرهينني!

- اني اعرف شعورك، واندفاعك الجارف نحو ماكس.

توقفت بني عندما رمتها شيرلي بنظرة سخط:

- ليس اندفاعاً البتة.

صرخت وقبضتا يديها تتشنجان بحركة عصبية.

- انا احبه، وسأموت اذا لم يتزوجني!

طفر الدمع من عينيها وكانت بني تراقبها وهي تتذكر كيف اكدت شيرلي لها بكل ثقة انها وماكس سيتزوجان. واستخلصت من كل ذلك ان شيرلي تحاول ان تقنع نفسها وليس احداً آخر.

- مهما انكرت فإني ما زلت اعتقد ان هذا غرور منك ليس الا. انت تتمسكين به لأنك وحيدة. ولكن كما قلت لك، انا ما زلت صديقتك ولن تكوني وحدك طالما انا هنا.

- انا لست اهلاً لأن تكوني صديقتي.

صرخت شيرلي بصوت يائس:

- وموقفك تجاهي يجعل مني فتاة رهيبة، اذ انه ليس في وسعي الا ان اسعى لبذر الشقاق بينك وبين ماكس.

لم تقل بني شيئاً واندفعت شيرلي قائلة بقوة غير عادية:

- ولكنه لا يكرهك كالسابق والا لماذا يقوم على خدمتك بنفسه؟

- انه يأتي لي بالدواء، ولكنه لا يخدمني.

- لكنه يوليك اهتماماً اكثر مما يلزم.

كان هذا صحيحاً ولكن بني لم تعلق بأي شيء، وقالت شيرلي:

- وحتى طعامك غالباً ما يأتي به اليك بنفسه.

- ليس كل مرة. الا تأتينني به انت احياناً.

- هل تحبين ان آتي لك بالطعام؟

سألتها شيرلي بلهفة.

- طبعاً.

- اتحبين رفقتي؟

ابتسمت بني وقالت مؤكدة:

- الم اقل لك اني صديقتك؟

كانت عينا شيرلي مليئتين بالدموع، الا ان بريق السعادة شع فيهما فجأة مما ادخل السرور الى قلب بني.

- متى تنهضين من الفراش؟

- غداً، ولكن لبعض الوقت.

- هل استطيع ان اجالسك في الحديقة؟

قبلت بني واشفقت على هذه الفتاة التي ما ان خرجت من محنة موت والدها حتى غرقت في حب جارف لماكس. . . او هي تعتقد ذلك. هذه

مأساة اكبر من ان تتحملها فتاة يافعة. لو انها تتعرف على شاب اصغر من ماكس... وفجأة مثل غراهام امام ناظريها بلطفه الشديد في تعامله مع شيرلي اثناء الرحلة. ولكم اهتم بها وقلق بشأنها وساعدها. ربما لا يعني هذا شيئاً بالنسبة الى غراهام الذي كان كثير التودد اليها على ظهر السفينة وفي روزو عندما تقابلا هناك. وقد تحول شعور غراهام بعد ان اطلعته على حال شيرلي، وقد يكون هذا التحول بدافع الشفقة. من يدري؟

- هل رأيت غراهام او تريفور مؤخراً؟

- رأيت غراهام في المدينة البارحة وتحادثنا بضع دقائق. وقبل الرحلة ذهبت مع تريفور كما تعلمين. ذهبنا الى الرقص على انغام الآلات النحاسية وكان مثيراً جداً، ولكنني تعبت كثيراً.

- قلت لماكس انك خارجة مع صديقة لك وسألني عنها.

- آوه... ماذا قلت له؟

بدا القلق على وجه شيرلي.

- قلت ان اسمها... ميريل. ماذا استطيع ان اقول عن فتاة خيالية؟

ضحكت لهذه المغامرة الا ان شيرلي توقفت واجفة:

- ولكني وضعتك في وضع حرج.

- ماذا لو اصرّ على رؤيتها؟ لزعزع ذلك كيانك، ولكني حاولت ان اقنعه بأن ميريل فتاة طيبة.

- خيراً فعلت يا بني.

واضافت شيرلي:

- صحيح اني وجدت متعة في الرقص، الا اني فضلت لو كان غراهام معي. اني معجبة به اكثر بكثير من تريفور ولن انسى كيف لاطفني اثناء الرحلة.

- بالفعل كان لطيفاً جداً. كنت افكر في ذلك منذ برهة.

- قد يأتي ليزورك لأنني اخبرته بمرضك. هل تريدينني ان اتصل به هاتفياً ليأتي ليراك؟

نظرت بني اليها نظرة تفاهم.

- نعم يا شيرلي. احب ان يأتي ليراني.

- سأتصل به هاتفياً الآن.

قالت ذلك وخرجت.

- استندت بني الى الوسادات خلف ظهرها وشيء من القلق باد على وجهها. ما تحتاج شيرلي هو شاب يكون لها. ماكس يحبها محبة الأب، ربما، ولكنه لن يكون لها، وتشك بني كثيراً في انه يعلم بتعلقها به. ولكنه يعرف جيداً ان عطفه عليها لا يجب ان يتحول الى عاطفة قد تحطم حياتها. وتأملت كثيراً في اقوال وتأكيدات شيرلي بانها وماكس سيتزوجان، وحاولت جاهدة ان تجد اساساً يؤيد اقوالها، ولكنها فشلت. خاصة وان ماكس، كما هو معروف عنه، عازب ابدي. حياته عمله. حياته في مزارعه، في عماله، في املاكه الشاسعة وفي بيت المزرعة الجميل.. ليس بحاجة الى اكثر من ذلك... وفعلاً تعتقد بني ان ماكس سيعتبر الزوجة عبئاً غير منتج، لا رأسمالاً مثمراً.

ارخت العنان لمخيلتها فرأت ماكس يمر امامها في كل مواقفه، منذ اللحظة الأولى من لقائها حتى الساعة التي هي فيها. وكان بينهما المد والجزر، التقارب والتباعد، التصالح والتشاجر. والحائط القائم بينهما هو زواج والدها. ماكس رجل صلب فولاذي ولكن قلبه، كما تعتقد، قد يكون من حرير.

انقطع تصورها عندما دخل ماكس مع العلاج وميزان حرارة. وازعجها مرأى القدح في يده لأنه دليل على دوائها الكريه.

- هذا لصالحك. انت تريدين ان يراك والدك في السرير، اليس كذلك؟

دهشت لذكر والدها ورفعت نظرها الى ماكس وقدح الدواء مرفوع الى فمها. لم يفهم معنى نظرتها فقال يحثها:

- تناوليه حالاً فترتاحي.

سألته بفضول وهي تقرّب القدح من فمها:

- هل تتناول ادوية احياناً؟

- لا اتذكر اني تناولت دواء في حياتي. اسرعي، لا تكوني جبانة.

اقترب من السرير ليأخذ حرارتها، وابتلعت دواءها في جرعة واحدة وناولته القدح.

- اذا لم تذق طعم اي دواء فانك تجهل ما هو. هل تصنعه انت بنفسك؟

- اعشاب. ان درجة الحرارة معتدلة جداً، تستطيعين النهوض غداً، واذا اعتنيت بنفسك ولم تجهدي جسمك فستكونين سليمة معافاة تماماً في نهاية الاسبوع.

كانت بني تتفحص وجهه الذي كانت اساريره منبسطة مع ابتسامة تحوم حول زوايا شفتيه. وكان مزاجه على درجة من التقارب والتفاهم شجعها ان تسأله اذا كان يسمح بأن تذهب ووالدته الى المطار يوم الأحد.

- ارغب في استقبال والدي شخصياً

كانت عيناها معلقتين باجابة منه وكانت شفتاها ترتعشان ترقباً وقلبها ينبض خوفاً. قال:

- هذا يعتمد عليك كلياً. ان قمت بما اقوله لك وان اخذت الأمور على طبيعتها لا ارى مانعاً من ان تأتي معنا.

- معنا...

لم تصدق بني ما سمعت اذناها.

- ماكس، ظننت ان نورا ستستأجر سيارة اجرة.

ما كان عليها ان تتلفظ بكلمة نورا بدلاً من السيدة ردفيرن. لا تدري اذا انتبه لهفوتها ام لا. قال:

- ايا كانت النقائص التي قد تعزيها الي، لا تستطيعين اتهامي بسوء الاصول في الآداب يا بني. بغض النظر عن علاقتي بوالدك فانه سيكون ضيفي ويستحق كل لياقة وحسن مجاملة على صاحب الدار تقديمها الى ضيفه.

كله رسميات... احست بقوة تدفعها الى الضحك، واذا ضحكت فقد يشاركها ماكس. لكنها فضلت الا تخاطر فتعكر جو التقارب بينهما فابتسمت وشكرته برقة متناهية.

- لا استطيع شكرك، وسيبتهج والدي بهذا النوع من الاستقبال

- هل يعرف باعتراضي على الزواج؟

- لا يعلم شيئاً، الا اذا اطلعته والدتك.

- املاً في ان اغير رأيي؟

قال بلهجة لا تخلو من السخرية:

- بما انه لا يوجد اي احتمال لقبولي بزواجه افلم يكن من الأنسب ان

تعلماه؟

وتمهيداً للاجابة عليه وكسباً للوقت اخذت بني ترتب غطاء السرير. ثم قالت:

- من المؤسف انك لا توافق يا ماكس، ولكن والدتك ستمضي قدماً بترتيب كل شيء لهذا الزواج.

توتر الجو بينهما قليلاً فأضافت قائلة انه طالما لا يعرف والدها فهو لا يستطيع الحكم عليه.

- لا احكم عليه شخصياً طبعاً.

بدا متضايقاً بعض الشيء، ولكي يخفي هذا نفض حبة غبار عن كم سترته، ثم قال:

- دعينا من ذلك الآن، فقد انتهينا منه.

ورأت ان هذا دليل على هزيمة من نوع او آخر. اخافتها هذه الهزيمة فمعناها اذلال لكبريائه، ولكنها تنفست الصعداء عندما رأت ان عبوسه تلاشى، اذ قال فجأة:

- يجب ان نتفادى اي قول او عمل قد يسبب لكلينا شجاراً لا طائل تحته يا بني، الا عندما تسمح قوتك بذلك.

ولكن تعابير وجهه شجعتها على ان تقول انها لن تشاجره مطلقاً، ولكنها خشيت ان يتهمها بأنها تتهافت عليه، كما فعل مرة في السابق.

قالت مؤكدة:

- لا يا ماكس. لا يجب ان نقول او نعمل اي شيء قد يسبب شجاراً بيننا.

٨ ـ ثمن التحدّي

بعد وجبة ظهر اليوم التالي قرعت تريزا باب غرفة بنيّ ودخلت وابتسامتها العريضة تملأ وجهها.

ـ قال السيد ردفيرن ان آتي لاساعدك على النهوض من السرير. ألديك ثياب خاصة تلبسينها؟

ـ خاصة؟

هزت بنيّ رأسها بالنفي:

ـ كلا يا تريزا. ستجدين ثياباً في الدرج وثوباً من القطن في الخزانة. . . اي ثوب، ولكن بدون أكمام.

ـ قال السيد ردفيرن يجب ان تكون ثيابك دافئة ويجب ان تلبسي معطفا فوقها. وقال قبل ذهابه الى مزارع الموز ان احضر بساطا خفيفا تضعينه على ركبتيك في الحديقة كيلا يصيبك البرد ثانية.

ـ هراء يا تريزا. اعتقد انك مخطئة. الطقس حار جداً وانا اشتهي ان احس بالنسيم يداعب جسمي.

عبست تريزا ولم تتحرك من مكانها لتذهب الى الدرج او الخزانة.

ـ اخشى ان ينزعج السيد ردفيرن اذا لم تعملي بنصحه.

ـ انت اسأت فهمه. انظري الى الشمس وكم هي دافئة. لن يصيبني اي برد.

لكن تريزا هزت رأسها وقالت بحزم:

ـ هو، الرئيس، دائما على حق.

ـ نعم يا تريزا، انه على حق. لكنك انت المخطئة.

رفعت تريزا كتفيها واستسلمت، واخرجت ما تحتاجه بني. وبعد فترة كانت مستلقية على كرسي طويل في ظل شجرة في الحديقة وتريزا واقفة الى جانبها يبدو عليها الانزعاج.

ـ الهواء بارد يا سيدتي.

ـ النسيم مدهش يا تريزا. كفي عن القلق بشأني. انا مرتاحة جداً.

ـ كما تشائين يا سيدتي.

وتناولت صندل بنيّ وقالت:

ـ سأنظفه واعود به حالا.

وحذرت بنيّ بقولها:

ـ ابقي رجليك على المنشفة والا اخترق البرغوث جلدك.

ـ سانتبه، شكراً. لا تتعجلي اذ سامكث هنا بعض الوقت.

ـ اذن سآتي به وقت الشاي.

استرخت بنيّ واخذت تتأمل الحياة التي تدور حولها. فوق رأسها، وعلى غصن شجرة ارز كانت الببغاوان اللتان استقرتا نهائيا في المزرعة تثرثران. وعلى بعد منها سحلية خضراء، تعرض جسمها في الشمس. هل هذه نفس السحلية التي التهمت الفراشة الجميلة؟ واذا صح هذا، فكم فراشة التهمت منذ ذلك الحين؟ ومن حولها عصافير صغيرة تهبط على الازهار لتمتص رحيقها. واقترب منها احد هذه العصافير فألقى نظره عليها، وضحكت بني. كان رأسه أصفر يلتصق به بعض لقاح الشجر. وهذا طائر السمان ذو الجناحين المرتجفين الذي ما ان اقترب منها، حتى ولى هاربا واختفى بين الأغصان.

سمعت بنيّ وقع اقدام. كانت هذه شيرلي، تبدو اصغر واقرب الى الطفولة في ثوب قطني اخضر كله طيات عند الخصر.

ـ مظهرك بديع.

قالت بنيّ مبتسمة عندما تقدمت شيرلي وجلست بالقرب منها.

ـ شكراً يا بني.

كانت شيرلي بسيطة الملبس والكلام، يبدو عليها نوع من الاستسلام، ولكنها كانت مبتهجة. وثرثرتا معاً مدة طويلة. وانضمت نورا اليهما بعض

الوقت ثم عادت الى عملها.

- لا تستطيع ترك عملها.

قالت شيرلي وهي تنظر الى جسم نورا النحيف:

-لا استطيع ان اعمل مثلها مطلقاً.

- بل، تستطيعين بكل سهولة اذا احببت عملك.

- لا عمل لها الا فحص الحجارة. وكلما وقع نظرها على حصاة تلتقطها حالاً وتكشط عنها الوحل او غير ذلك. لعمري، ماذا تجد في الحجارة؟

- ستندهشين اذا عرفت.

ضحكت بني ولمست اصبع شيرلي وسألتها:

- من أين هذه الماسة التي في اصبعك؟

- اشتراها لي والدي من متجر المجوهرات.

حركت اصبعها ولمعت الجوهرة في الضوء وقالت:

- هل تحبينها؟

تنهدت بنّي وقالت لتفتح موضوعاً آخر:

- قلت ان غراهام آت بعد المدرسة؟

كانت شيرلي ما زالت تنظر الى الخاتم:

- اتصلت به هاتفياً كما قلت ووعد ان يأتي اليوم، وارجو الا يكون قد نسي.

نهضت شيرلي وقالت:

- هل يزعجك ان اتركك؟ الحرارة لا تطاق وثيابي لاصقة بجسمي. سأستبدل ثيابي ببنطال قصير وسأضع قبعة قش عريضة.

- كلا، لن انزعج. ولكنك جميلة جدا كما انت.

- هل تنصحينني بأن أبقى هكذا؟ اذن سأستحم اولا، وساراك فيما بعد.

وفيما كانت شيرلي تستعد للذهاب عبست بنّي وسألت:

- هل الطقس دافىء اليوم؟

- دافىء؟ محرق. لم اشعر بحر اشد من هذا منذ ان جئت الى هنا.

أزعجت بنّي هذه الكلمات لأنها احست مرة او مرتين ان الهواء كان قارسا تقريبا، وشعرت عدة مرات بقشعريرة برد تسري في جسمها. كانت

شيرلي تدخل البيت عندما صرخت بنّي اليها ولكنها لم تسمعها. تريزا... اين تريزا ولماذا لم تعد بصندلها؟ عضت شفتها ندما على قولها لتريزا بألا تتعجل. وتعرف انها لا تجرؤ على الذهاب الى غرفتها حافية القدمين خوفا من تلك البراغيث اللعينة... ومن ماكس اكثر. وماذا اذا اصابها البرد مرة اخرى؟ تبين لها ان تريزا فهمت تعليمات ماكس الذي شدد على ثياب دافئة ومعطف وبساط لرجليها.

- يا الهي ماذا افعل؟ ماذا سيقول؟

مع مضي الوقت ازداد اضطرابها، وكانت اطراف يديها باردة كالثلج والهواء يهب بارداً. ولم تمض دقائق الا وكان كل جسمها بارداً رطباً كما كان ليلة انقاذها من وادي البحيرة منذ اسبوع. اخذت تصرخ بأعلى صوتها، ولم يسمعها انسان بسبب المسافة التي تفصل بينها وبين البيت. اين ماتيو البستاني؟ اين تريزا؟ اخذ الفزع يستولي عليها... ورأت سيارة غراهام عن بعد متجهة الى باحة البيت. نزل غراهام من السيارة وحياها قائلا بشاشته المعهودة:

- قلقنا بسبب شيرلي ولكنك انت التي تستحق القلق.

وقدم لها علبة شوكولا، ولكنه ارتاب في ان شيئاً ما ليس على ما يرام:

- قالت شيرلي انك... احسن. هل انت بخير يا بني؟ ألم تبالغي في بقائك هنا هكذا؟ وجهك ابيض شاحب... ومتعب.

- صحيح يا غراهام.

وقصت عليه ما حدث دون ان تخفي تخوفها من انتقاد ماكس لأنها لم تعمل بتعليماته.

قالت:

- ارجوك يا غراهام، اريد حذائي من الغرفة ومعطفاً. انا متجمدة من البرد.

لبى غراهام طلبها بسرعة. وبمساعدة تريزا عادت الى فراشها. كانت تريزا تواسيها مرة وتعنفها اخرى.

- ما الذي سيقوله السيد ردفيرن لا ادري!

رفعت يديها الى السماء وقلبت عينيها الى اعلى واسفل:

- انه قد يأتي في اية لحظة الآن لأن العمال عادوا الى منازلهم.

- لا لوم عليك يا تريزا.

توجست خيفة من قدوم ماكس، فهذا موعده لتناول الشاي. واضافت:

- لن ادعه يعاقبك. لا تخافي.

- بل سيعاقبني لأنه يشدد على اطاعة اوامره. انا خائفة.

لم تحر بنّي جوابا لأنها كانت ترتعش كليا ولم تقو حتى على الكلام. اغمضت عينيها واسندت ظهرها على الوسائد خلفها. وسمعت تريزا تقول:

- ليتنا لا نذكر ذلك للسيد ردفيرن...

كان صوت تريزا بعيدا عن سمع بنّي لوهنها، وطمأنتها بجهد كبير:

- فكرة حسنة... لن نقول له شيئا.

- سنقول انك كنت تلبسين الثياب الدافئة.

- نعم، سنقول ذلك ايضا.

كانت بنّي عابسة. ماذا كانت تقول؟ هل خططتا لتكذبا على السيد ردفيرن؟ لمست رأسها فتبللت يدها.

- نعم يا تريزا، استعملت البساط...

دخل غراهام بعد خروج تريزا وبعده بدقائق اتت شيرلي.

- ما بها يا غراهام؟

أصابها الخوف على بنّي التي كانت تبدو بلا حياة.

أفهمها غراهام ما حصل، وسمعت بني صوت شيرلي وكأنه همس يقول بأنها ستأتي بنورا. ولكن شيرلي سمعتها تطلب منها قدح شراب لتطفىء عطشها الحارق. وقال غراهام بعد خروج شيرلي:

- أليس من المستحسن استدعاء الطبيب حالا؟ هل حالتك سيئة؟

كان صوته حزيناً وأخذ يدها في يده.

- لماذا الطبيب؟

كان ذاك ماكس. كان واقفاً في الباب بقامته الطويلة الرشيقة وسحنته البرونزية. سلط نظره القاسي عليه مما اجفل غراهام فترك يد بني وانتحى جانبا. تقدم ماكس بسرعة نحو السرير واخذت الدهشة منه مأخذها وسألها بقلق شديد:

- ماذا جرى يا بني؟

هل تصورت ذلك ام ان حنان صوته كان حقيقياً؟ لن يحن عليها عندما يعرف الحقيقة.

- لا شيء.

كان صوتها لا يكاد يسمع.

- شعرت بالبرد عندما كنت في الحديقة، ولكن ذلك سيزول عندما يدفأ جسمي.

هز ماكس رأسه قائلا وهو لم يفق من الذهول بعد:

- لا افهم شيئاً. من المستحيل ان يصيبك البرد. هل غطيت جسمك كما قلت؟

تابع كلامه واثقاً ان بني فعلت كما طلب منها.

- مستحيل ان يصيبك اي أذى بخروجك الى الحديقة... ومع ذلك...

وضع يده على جبينها وهو بعد مذهول.

- سأذهب.

قال غراهام مرتبكاً قليلاً.

- وارجو ان تتحسني بسرعة.

- شكراً يا غراهام.

- اخبريني يا بني، هل حميت جسمك بثياب دافئة؟

كان صوت ماكس منخفضا وقلقا ولطيفا اكثر مما توقعت بني، وكانت يده لا تزال على جبينها رطبة ناعمة.

- كان المعطف يغطيك يا عزيزتي والبساط حول ساقيك، اليس كذلك؟

عزيزتي... تجعد جبينها تحت يده عندما حاولت ان تفكر بصفاء ذهن. كان رأسها يؤلمها ولم تتمكن من حصر افكارها... عزيزتي... هل قال... عزيزتي... ام يا عزيزتي؟ لماذا يناديها هكذا؟ كان ينظر اليها بشيء من الغرابة وهو ينتظر جوابها. ستنكره نفسها اذا هي اخفت الحقيقة، ولكنها يجب ان تخفيها عنه لتحمي تريزا.

- انا... انا...

لم تقو على الكذب المتعمد، ولما لم تجد بديلا عمدت الى اكتساب

الوقت:
ـ ماذا قلت يا ماكس؟
ـ لا بأس عليك يا بني. لا تتكلمي اذا كان الكلام يتعبك. سآتي لك بشيء تتناولينه . . .
ولكنه هز رأسه من جديد وقال بذهول:
ـ لا اعرف كيف حدث هذا، ولكنني انا الملوم لأني سمحت لك بالخروج مع اني كنت متأكداً من ان ذلك لن يؤذيك.
وازاح شعرها عن وجهها بيده وكان رطبا بالعرق فاسرع خارجا ليعود ببعض الحبوب ولكنه التقى بتريزا وهي تحمل قدح الشراب.
ـ هذا شرابك يا سيدتي.
وضعت تريزا القدح على الطاولة بجانب السرير وهي تحاول ان تتجنب النظر الى ماكس.
ـ شراب البرتقال. هل هذا ما تريدين؟
ـ نعم يا تريزا. هذا ما اردت. ورأت علامة الاستفهام على وجه ماكس والخوف في عيني تريزا. وعندما همت تريزا بالخروج، قال لها ماكس:
ـ تريزا. . . هل اعطيت كل التعليمات للآنسة بني؟ لم تنسي شيئاً؟
نزلت العبارة الاخيرة على بني كالصاعقة وعلى تريزا التي بدأت ترتجف من الرعب. كانت كلماته الاخيرة تعني ما لانهاية له من الايضاح.
ـ لا يا سيدي، لم أنس. استعملت الآنسة الثياب الثقيلة والمعطف والبساط وكل ما قلت لي.
زمّ شفتيه وبرزت عظام وجنتيه وقال ببرود:
ـ أريني هذه الثياب يا تريزا والمعطف.
جمدت تريزا في مكانها ولم يخف ارتجاف جسمها على ماكس. ابتلعت بني ريقها وحاولت ان تكشف له الحقيقة وان تقول ان الخطأ خطأها ولكنها لم تجد الشجاعة الكافية. في حياتها كلها لم يصبها ذعر مثل هذا.
ـ الثياب يا سيدي؟ والمعطف؟
ـ هذا ما طلبت يا تريزا.
ـ الثياب. . .
تمتمت مذعورة ونظرت الى بني متوسلة مستنجدة:

ـ الثياب والمعطف. . .
اخذت تبحث داخل الخزانة كمن يتخبط في الظلام.
ـ اغلقي باب الخزانة!
كان صدى صوته كفرقعة السوط. اغلقت الباب وهي ترتجف مثل ريشة في مهب الريح، ولوت اصابعها بعصبية شديدة.
قالت بني:
ـ ماكس. . . ولكنه قاطعها.
ـ تريزا، لأول مرة تكذبين علي. نسيت نقل تعليماتي الى الآنسة بنّي، وترين الآن كم هي مريضة. استطيع ان اتجاوز اهمالك في اعطائها التعليمات ولكني لن اتهاون في قضية كذب. اذهبي وانتظريني في غرفة الجلوس. انهى كلامه بصوت ناعم، بطيء، راسخ، ولهذا تأثير قاتل في النفس. دمعت عينا تريزا.
ـ سيد ردفيرن. . .
التفتت الى بني التي حاولت مرتين ان تتكلم بينما كان ماكس يتكلم.
ـ سيدتي، قولي للسيد انك استعملت الثياب الدافئة.
ـ لا تقلقي يا تريزا. اطمئني.
كان صوت بني يشبه صوت طقطقة الخشب المتكسر بسبب الرعب الذي استولى عليها، ومع ذلك تمكنت من الابتسام لتريزا لتطمئنها. واضافت والعرق يتصبب منها:
ـ ساوضح كل شيء للسيد ردفيرن.
ـ نعم يا سيدتي. . . اشكرك يا سيدتي.
كان صمت بين الاثنين، وتجهم لدى ماكس، وخوف وترقب لدى بني. لم يفطن الى حقيقة الامر بعد، وتكلم مطولاً ولكن كان ينطوي على عتاب لا على غضب:
ـ اذا قصدت حماية تريزا فان تعبك سيذهب سدى. من المؤكد انها لم تنقل تعليماتي لك، والا لما حدث شيء. وطار لبي عندما رأيتك على هذه الحال، لأنني لا ارى كيف اقع في خطأ فاسمح لك بالخروج وانا على يقين من انه سيفيدك.

مضى بعض الوقت قبل ان تتمكن بني من الكلام، وكان صوتها خافتا قريبا من الهمس:

- انا لا اتستر على تريزا يا ماكس. نقلت تعليماتك الي على علاتها.

- هي . . .

لم يتم كلامه. سحب يده بسرعة من على جبينها وتجمع الدم تحت جلده دليلا على ثورة غضب يعتمل في داخله.

- انت اهملت تعليماتي؟

وبالرغم من المناسبات العديدة التي اهملت فيها تعليماته ونصائحه لم يصدق هذه المرة انها تجرأت واهملتها من جديد:

- هل قالت تريزا انه يجب عليك ان تبقي دافئة؟

اومأت بني برأسها وكان قلبها يخفق بسرعة جنونية. وانزلقت تحت الاغطية شاكرة المولى لوجودها في السرير. لأنها ظنت ان ماكس قد يؤذيها وهو في هذه الدرجة من الغليان.

- قالت لي تريزا انه يجب ان ارتدي ثياباً دافئة ومعطفاً، ولكن الشمس كانت محرقة لا تحتمل. . .

- ولذا تجاهلت تعليماتي معتقدة اني لا اعرف ما افعل، او لا اعرف ما بك. وكالعادة اعتقدت انك أذكى مني.

كان عملاقا ينظر اليها من اعلى وهي تحاول بدهاء ان تقرأ افكاره. وختم كلامه بقوله انها تعمدت تحدي اوامره وانه ليزعجه كثيرا ان تكون مريضة وهي في بيته. . . وانه تخالجه رغبة في الاعتذار لتريزا. . . فهمت بني من كل هذا ان في نيته ايذاءها هي.

- ليس الامر كما تقول.

تلعثمت وهي تتكلم وادارت وجهها الى الجانب الآخر لتتجنب عينيه.

- كان الطقس شديد الحرارة وقلت لنفسي ان الثياب الخفيفة تكفيني، ولم اهتم بتريزا يقينا مني بأني لن اصاب بالبرد مرة اخرى.

- يقينا منك، هيه؟ وما هو يقينك الآن؟

لم تجب، وزاد حنقه.

- في رأيك ان كل ارشاد اقدمه لك تافه. وها البرد يهاجمك بعكس كل استنتاجاتك الذكية وسيتطلب شفاؤك وقتاً اكثر مما تتصورين!

ودون انتباه رفع يده بحركة عفوية ولكن عصبية جعلت بني تجفل منها، وكان من نتيجتها ان طفح كيل غضبه الى حد الجنون اذ قال:

- بحق السماء، لو لم تكوني مريضة لأذقتك الأمرين، او بالحري كان يجب ان تتلقي درسا قاسيا مني قبل ذلك، او كان على والدك ان يدربك على الطاعة. وقد يكون والدك زوجا صالحا ولكنه ليس ابا قديرا!

عند ذلك ترك الغرفة بخطى واسعة ولم يلحظ نورا التي تنحت جانباً لتفسح له مجال المرور، ثم دخلت الغرفة واقتربت من سرير بني.

- اخبرتني شيرلي انك مريضة، يا عزيزتي.

نورا امرأة لا تهتاج ولا تتطفل الا نادراً، وبمجيئها ادخل بردا وسلاما على قلبها بعد هذه الثورة الجامحة.

- ماذا حدث؟ ما كان يجب ان تخرجي. . . الا اذا سمح ماكس بذلك، وكما قلت انه ماهر كالطبيب.

- اصابني البرد مرة اخرى، وماكس قال ان علي ان استعمل ثيابا دافئة ولكني لم افعل.

- هو قال ذلك؟ لماذا لم تلبسيها يا حبيبتي؟

قالت ذلك والتفتت نحو الباب ثم عادت تنظر الى بني والى وجهها الشاحب.

حكت لها بني قصة خروجها واهمال ما نقلت اليها تريزا من تعليمات ماكس، واضافت والحزن بادٍ في عينيها:

- بالطبع غضب لأنه اعتقد باني تحديته عمداً!

- لا تلوميه على ذلك، ولقد تحديته مرارا في السابق. وانت خير من يعرف.

لم تجب بني. كانت تشعر بان الرياح الجليدية ما زالت تهب عليها، وكان رأسها يؤلمها. مالت الشمس نحو المغيب واعتمت الغرفة قليلا مما زاد في غم بني ويأسها.

- أين شيرلي؟

- مع غراهام على الفراندا. يبدو لي شابا ظريفا مع اني لم احتك به في السفينة، ولكني لاحظت انكما متصادقان. قالت شيرلي انه اتى ليزورك.

اجابتها بني بشرود، واملت ان يكون غراهام اتى اهتماما بشيرلي،

ولكنها لم تذكر ذلك لنورا.
ـ من المؤسف ان تكوني مريضة في الفراش بدل ان تستقبلي والدك الذي سيؤلمه وضعك.
ـ لا اعتقد ان مرضي بهذه الخطورة ولو ان مظهري رهيب.
ومدت يدها فلمست شعرها المبلل المشعث.
قد يتحسن حالي حالما اتناول الحبوب التي سيأتي بها ماكس.
ـ اعتقدت انه لن يعود بعد هيجانه بهذه الصورة.
ـ غضبه آلمني، واخشى الا يسامحني بعد ان تقاربنا وتفاهمنا.
قالت والأسى طاغ عليها من المرض.
ـ هذا درس لك، لكن لا تشغلي بالك كثيرا يا بني.
التفتت نورا الى الباب من حيث خرج ابنها قبل بضع دقائق، ثم قالت:
ـ لماكس مزاج رهيب ولكنه لا يحقد، وسينسى ذلك في وقت قصير. اطمئني.
عاد ماكس بالحبوب وقدح من الماء. امرها بان تجلس دون ان يساعدها. كافحت بني لتجلس وبكل تواضع تناولت الحبوب. ورمقته بنظرة خفيفة وهي تشرب فبدا لها داكنا في هالة من نور الغسق. اصابتها رعشة، وأمرها بالتمدد ثانية بعد ان اخذ منها القدح. وعندما تكلم لم يظهر عليه انه منتبه لوجود أمه:
ـ ومن الآن فصاعدا ستفعلين ما اقوله لك. ستتبعين اوامري، نعم... اوامري. وستقومين تماما بما تطلبه منك تريزا. وعند اول اشارة تمرد منك سيكون حسابك معي.
ـ ماكس، كيف تكلم بني بهذه اللهجة؟ انا لا اعذرها لمسلكها، لكنها مريضة. الا يوجد في قلبك مكان للتغاضي؟
ـ لم تكن مريضة بعد ظهر اليوم عندما خرجت بثياب خفيفة جدا.
ـ لا تبالغ يا ماكس في فقدان صبرك وهز كتفيك. وانت تعرف كم اكره هذه الحركات...
ـ اذن، ارجوك لا تتدخلي.
قالها بهدوء وأدب، ثم تحول الى بني:
ـ هل تشعرين بالبرد؟

هزت رأسها واحست بخناق في حلقها منعها من الكلام.
ـ من المؤكد انك تشعرين بالبرد. سأرسل قنينة ماء ساخن مع تريزا: دمعت عينا بني. في المرة السابقة كان هو الذي يأتي بالقنينة شخصيا، ولكنه هذه المرة اكثر غضبا واشد قساوة.
ـ هل تشعرين بالجوع يا عزيزتي؟
وسألتها نورا بقلق:
ـ أتريدين حساء او شيئاً آخر؟
ـ شكرا، لا استطيع الآن.
ظلت نورا واقفة قليلا ثم ذهبت. رفعت بني عينين باكيتين الى ماكس وقالت بصوت فيه ندم وتأثر حقيقيان:
ـ آسفة!
ـ أنت دائما آسفة.
قال بلا قلب: تورطت والدتي مع اشخاص غريبي الاطوار، ولكنك اغربهم واكثرهم ازعاجا. واذا كان والدك من نمطك فستدب الفوضى في تنظيم بيتي الى حين رحيلكما!
تغلبت بني على ضعفها ولم تتحمل ان يذل والدها في غياب..
ـ كيف تتجرأ ان تتفوه بأشياء مثل هذه عن والدي؟ انه ليس مثلي بالمرة... انه لطيف وظريف. كان صوتها مهتاجاً ولم تع ما عنت او تبال بما قالت.
ـ هيهات ان يتساوى لطفك معي ولطف والدي معي. لك قلب قاس!
لم يبد على ماكس اي تأثر حتى عندما انفجرت بني بالبكاء.
ـ انه الطف مني؟ الطف مني!
قال ماكس ذلك وهو يصرف اسنانه.
ـ هذا يعني ان مسلكك معه يختلف عن مسلكك معي انا لأن تصرفاتك منذ مجيئك تجعل الواحد ينفجر!
امضت بني اسبوعين قبل ان تستطيع النهوض وتستعيد بعض نشاطها. والدها كان قد وصل يوم السبت وكانت نورا وابنها في استقباله. وبني تعرف ان ماكس يراقب مواقف ابيها عن كثب، وتأمل من كل قلبها ان يكون والدها قد اعطاه انطباعات حسنة. وحال وصوله توجه الى غرفة ابنته

وحزن كثيرا ولكنها سرت برؤياه. تأملته ورأته اكبر بقليل من ذي قبل. وكان شعره يتخلله البياض هنا وهناك بعد ان كان كله بلون الحديد الرمادي. ولمست شعره وكان بعد كثيفا فافتخرت به وداعبت خصلة كانت تتدلى فوق حاجبه.

- ماذا حدث لصغيرتي؟ قالت لي نورا انك وقعت مريضة مرتين.

صوته هو هو، برنته المحبوبة ورزانته التي تعكس طباعه وخلقه.

- اصابني برد في المرة الاولى ولكني سقطت مرة اخرى فريسة له. انا احسن حالاً الآن، هذا ظني على الأقل.

اضافت عبارتها الاخيرة عندما رأت ماكس يدخل حاملا دواءها.

- نعم، حالتك مرضية.

وقال ماكس باقتضاب:

- الم اطلب منك ان تضعي شيئاً على كتفيك اذا جلست؟

- بل وضعته. أوه، عفواً، لقد سقط.

حاولت اعادة الشال كما كان، وكانت تتلوى من الجهد. انحنى ماكس ليساعدها وكان فمه قريبا من أذنها فحذرها هامسا بان تفعل كل ما يقوله لها.

كان يوما بهيجاً عندما سمح لها بتمضية ساعة زمان في الحديقة، وكان استشفاؤها سريع الخطى فما لبثت ان تركت سرير المرض نهائيا.

- ستتمكن الآن من القيام ببعض النزهات في اواخر كل اسبوع.

قالت نورا وهم جالسون في الفراندا مساء احد الايام:

- لم نرغب في ان نتركك وحدك يا بنّي.

كان جالساً كأنه متضجر، الا ان بنّي كانت ترقب فيه اهتمامه بأبيها وبعلاقته مع امه.

- جعلتني تلك السيدة الصغيرة اشعر بالفخر.

قال جايمس وهو ينظر الى شيرلي التي كانت جالسة تتطلع حالمة الى البحر المخملي اللون الذي يعكس السماء المرصعة بالنجوم والمتلألئة ببدر ساطع.

ثم تابع:

- وتدغدغ حواسي عندما اكون في رفقة فتاة جميلة، كشيرلي، تكرس وقتها لي.

يبدو ان والدها استحب شيرلي. واطمأنت لأن تقدير رجل مثله يعيد اليها الثقة في نفسها، وهذا ما تحتاج اليه.

- كان بودنا ان نذهب الى مستوطنات الكريبي، الا ان ماكس قال ان الرحلة تستوعب يوما واحدا ويجب ان نستخدم دليلا.

- تكلمت شيرلي عن هذه الخطة باخلاص، ولكن ذكر الدليل كانت تنقصه اللياقة فالتفتت بني الى ماكس ورأت ان بريقا من الغضب لمع في عينيه ولم تفهم سبب ذلك.

اقترحت نورا ان يذهب جميعهم وقد يأخذهم ماكس في سيارة اللاندروفر.

- مدهش.

قال جايمس ملتفتاً الى ماكس:

- سنذهب عائلة واحدة.

حبست بني انفاسها. كيف يتجانس ماكس مع والدها؟

- هذا ممكن. سأقوم ببعض التدابير.

لم يكن في نبرة صوته حماس او برود، ولكن بني اطمأنت الى اهتمامه بالرحلة. ثم اضاف ماكس:

- الآن نستطيع ان نذهب. فقد تحسنت حالة الطرقات.

- انتظر ذلك بفارغ الصبر.

وقال جايمس وهو يبتسم الى ابنته.

- أعلمتني نورا عن مستوطنات الكريبي. ومن المحزن جدا ان يكون هذا كل ما تبقى من أمة كانت قوية فيما مضى.

- الحروب لا تبقي ولا تذر!

قالت بني حالمة:

- ويبدو ان الانكليز والفرنسيين كانوا عاكفين على ابادة هنود الكريبي.

- انهم متوحشون على ما اظن.

قالت شيرلي بدون اهتمام ظاهر:

- كانوا متوحشين وقاتلوا بشراسة، ولكن لا يعني هذا انه يجوز اهلاك أمة بكاملها.

- كانوا من أكلة لحوم البشر!

اضافت شيرلي مشمئزة:

- كنا مثلهم نحن ايضا.

- اوه، كلا يا بني. لا اعتقد ان هذا صحيح.

علقت نورا على الفور.

-من أين اتيت بهذه الفكرة؟

- ألم يكن جميع البشر من أكلة لحوم البشر في يوم من الايام؟

- لا يروقني هذا التفكير.

وحول جايمس الحديث الى الكريبي فقال:

- ما هي اللعنة الكريبية التي نسمع عنها؟

- هل تعرف شيئا عنها يا ماكس؟

سألت نورا ابنها.

- يرجع تاريخها الى ايام أكلة لحوم البشر، ولما رأى احد رؤساء القبائل انه يوشك ان يقع اسيرا، قذف بنفسه من صخرة عالية الى البحر وهو يرسل اللعنة بأعلى صوته. لعن كل البيض، وظل الفرنسيون يخافون من هذه اللعنة مدة طويلة.

علّقت نورا على هذا بقولها:

- اتذكر الآن ان هؤلاء الكريبيين كانوا يقولون ان الفرنسيين ألذ طعما الا انهم كانوا يفضلون الانكليز عليهم.

اضحكت هذه العبارة كل الحاضرين الا شيرلي التي لم تتردد في القول بانها سعيدة بزوال جميع هؤلاء الهنود الكريبيين.

قال جايمس:

- انه عار علينا اذا هم تلاشوا كلياً. اعتقد ان ما تبقى منهم يتمتعون بالحماية.

قال ماكس:

- انهم في امان، ولكن يجب علينا ان نقدم لهم هدية عندما نذهب لنزورهم لأنهم يحتاجون كل مساعدة، ومن عادة الزوار تقديم الهدايا لهم.

قال ذلك وتركهم، ورأت بني ان مكتبه قد اضيء. ذهب جايمس للنزهة برفقة نورا وبقيت بني وشيرلي على الفراندا.

- اني استحببت والدك يا بني.

قالت شيرلي بعفوية وهي تبتسم:

-وهل لاحظت انه يحبني هو ايضا؟

قالت بني بعد تردد قصير:

- انت يهمك كثيرا ان يتودد الناس اليك. كلنا نرغب في ان يحبنا الناس، لكنك تحبين ان تكوني مركز اهتمام الغير بك.

- هذا بسبب ماكس واعترف بذلك. اعتقدت ان ماكس سيتقرب الي اكثر عندما اتيت الى هنا... ويتزوجني.

- ان ماكس يحبك وهذا واضح في طريقة معاملته لك، وانت قلت انه لطيف جدا.

وقارنت بنّي في ذهنها بين لطف ماكس مع شيرلي ولطفه معها هي. وحزنت لأن درجة لطفه معها أدنى بكثير من درجة لطفه مع شيرلي، خاصة بعد ان اهملت تعليماته الاخيرة. والدليل على ذلك انه لم يبد اهتماماً بها اثناء مرضها غير تقديم الدواء لها، واقتصرت زياراته لها على مرتين او ثلاث يظل اثناءها واقفا، بخلاف زياراته لها اثناء مرضها الاول حين كان يجالسها ويلاطفها ويقوم على خدمتها بكل ما في الكلمة من معنى. انها تقر بخطئها ولكنها ضحية هفوات، والذي يؤلمها كثيراً هو ان ماكس يتهمها بانها تتحداه عن قصد بينما هي تؤكد له عكس ذلك. لن تستطيع الآن ان تفاتحه في هذا الموضوع لأن التباعد بينهما اصبح كبيراً جداً. ومنذ شفائها لم تلتق مرة واحدة بماكس في المسبح، اذ انه اما ان يكون قد سبقها او يذهب بعد ان يتأكد من انها انتهت من سباحتها.

- اعلم انه لطيف معي لأنه يشفق علي فقط.

دل صوت شيرلي على الشعور بالحزن. وأسفت بني لوحدة شيرلي التي وعدتها بصداقتها وبمرافقتها احيانا في نزهات، او بمجالستها في البيت، ولكن هدفها أبعدها عن ذلك وصحيح ان شيرلي كانت تاتي لزيارتها الا انها كانت دائماً عصبية تريد ان تخرج من قفصها. كانت تخرج احيانا تتنزه بمفردها طبعاً، ولكن بني تعرف تماما ان شيرلي بحاجة الى رفقة تكون خاصة بها لا تفارقها.

واضافت شيرلي:

- اني اعرف الآن انه لن يتزوجني.

ابتسمت بني وقالت:
- وليس كما في الكتب.
- كنت اعتقد انه سيتزوجني حتى اذا لم يكن ذلك في الكتب.
- كما قلت لك، ربما قُدّر لماكس الا يتزوج.
- كان يحبك عندما مرضت المرة الاولى.
- هذا صحيح، تقاربنا بعض الشيء.
تنهدت بني ولاحظت شيرلي ذلك.
- ألا تبالين لأنه غاضب منك الآن؟ وانه لا يحبك كالسابق؟
لم تجب بني.
تابعت شيرلي كلامها:
- في الحقيقة، ماكس ليس وصياً علي بالمعنى الصحيح. اهتم بتربيتي لأنه لم يعد لي انسان في هذا العالم.
- حسناً فعل. ألا يوجد لك اقارب البتة؟
- ولا واحد. . . هذا يخيفني يا بني.
- لا يجب ان تخافي. هناك ماكس وانا. . . وماذا تقولين بغراهام؟
تورد وجه شيرلي ولمعت عيناها.
- خرجنا معاً مرة او مرتين.
- صحيح؟
مالت بني الى الامام وتفرست في شيرلي وسألتها:
- الى اين ذهبتما؟
- سرنا على الأقدام ومن ثم ذهبت معه الى حيث يقيم. البيت ليس كبيرا وهناك شاب صغير يقوم على خدمته اسمه هاياسنث. . . توجد اسماء غريبة هنا.
- هل يعرف ماكس انك تخرجين مع غراهام؟
- كلا. يعتقد اني اخرج مع ميريل فيربانكس.
ضحكت شيرلي لهذا السر.
- وهذا لا يعارض في خروجي في المساء.
- أحذرك يا شيرلي من انه قد يطلب التعرف على ميريل هذه.
- هذا ما أخشاه. هل يمكنك ان تعملي شيئاً يا بني؟

- مثل؟
هزت شيرلي كتفيها وقالت:
- أنت حاذقة، يمكنك ايجاد وسيلة ما لتطمينه.
- تعنين انه يجب ان اخترع كذبة، أليس كذلك؟ لا تتكلي علي يا شيرلي. كفاني متاعب مع ماكس. لن اكذب حتى لو كان ذلك ينقذ حياتي.
- لن يكتشف ذلك ابدا.
- لن اجازف. كلا يا شيرلي. لا تتأملي في اية مساعدة مني. في كل الاحوال، لماذا لا تكلمين ماكس عن غراهام؟ انه شاب عاقل ورصين، ومن المؤكد ان ماكس لن يخاف عليك منه.
- لا استطيع يا بني، فقد يظن ان غراهام شاب عابث وانه يلاحق الفتيات.
- وما السبب في ظنه هذا؟
- كنت مريضة في الفراش وكان غراهام في زيارتك، وفجأة دخل ماكس غرفتك ووجد يد غراهام ممسكة بيدك. فسحب غراهام يده بسرعة. والمهم في الامر ان غراهام سحب يده خوفا من نظرة ماكس الغاضبة.
- نظرة ماكس الغاضبة. . .؟ ماكس نظر الى غراهام بغضب؟ لم الاحظ ذلك في حينه، ولماذا يغضب ماكس؟
لم تجب شيرلي، بل اخذت اجفان عينيها تتراقص وخفضت رأسها ومضت برهة من الزمن قبل ان تجيب:
- اعتقد ان ماكس لم يجد من المناسب ان تكونا في هذا الوضع وانت في الفراش.
لماذا يعتبر ماكس هذه الحركة غير ملائمة بينما هو نفسه كررها عدة مرات اثناء مرضها الاول؟ تذكرت بني الآن ان ماكس نفسه مازحها بصدد ذلك.
- لا ارى سبباً لشكوكه. هذا شيء طبيعي بين الاصدقاء.
- ولكن ماكس لا يأخذ ذلك في عين الاعتبار. قد يعتبر غراهام صديقا عابثا.
- ربما.
قالت يائسة:
- وبما ان ماكس لا يحبك فانه لن يحب غراهام ايضاً، وبما يجعله متأكداً

من ان غراهام عابث في خروجه معي. ألا ترين هذا مربكاً؟ كلا، لا استطيع ان اقول الحقيقة له.

بعد ان تركتها بقيت بني وحدها على الفراندا، وفجأة تفتح ذهنها على حيلة شيرلي ومكرها.

فبالرغم من انها فقدت كل امل في الزواج من ماكس ما زالت الغيرة تأكل قلبها. فهي لا تريد لغيرها ما لا تستطيع الحصول عليه، ولذا تحاول ان تجعل ماكس يعتقد ان غراهام فعلا يغازل بني وغيرها من الفتيات ولذلك تحتفظ شيرلي بعلاقتها السرية بغراهام.

٩ - أكاذيب غير مقنعة

قاموا بالرحلة الى مستوطنات الهنود الكريبيين يوم السبت التالي. كان ماكس يقود السيارة وكان جايمس جالساً بجانبه ونورا والفتاتان في المقعد الخلفي. كانت الطريق تمتد على طول الساحل الذي كان يرتفع احياناً عن البحر ارتفاعاً شبه عامودي بسبب عدم وجود ارض سهلة بين البحر والطريق. ومن ينظر الى اسفل وهو على هذا الارتفاع يتمنى عدم تكرار رحلة كهذه مهما كانت متعتها. غير ان المناظر كانت من اجمل ما يتصوره الانسان. ومما زاد في جمال طبيعة الهند الغربية قمة جبل مورن ديابلوتيس من جهة الشرق وبحر الكريبي من جهة الغرب.

وما ان دخلوا منطقة المنحدرات الشديدة، الكثيرة الصخور حتى رأوا ان اهلها يختلفون اختلافا كليا. فأهل باقي انحاء الجزيرة من السود بينهم عدد محدود من البيض، وسكان هذه المنطقة من الكريبيين جنس منعزل يعيش في المستوطنات وعلى اراضيها المحيطة بها وينتخبون رئيسهم الخاص بهم.

- انهم يشبهون الهنود تماما.

وقالت شيرلي عندما كانت السيارة تسير على مهل في شوارع احدى القرى في جبال خليج الامير روبرت:

- هل توقعت ان يكونوا بغير هذا الشكل؟

قال ماكس.

- ظننتهم اكثر سوادا.

- هكذا ظننتهم انا ايضا:

قالت بني وهي تتبع بنظرها شابا كان ينظر الى السيارة باهتمام كبير.

كان لون بشرته يميل الى الاصفرار اكثر منه الى لون الهنود البرونزي. وكانت عيناه صغيرتين ومائلتين وعظام وجنتيه بارزة، كما كان شعره اسود ومنتصباً ولامعاً.

قال جايمس:

- هل هذه سكناهم الدائمة؟ رأيت البعض منهم في روزو.

اجاب ماكس وهو يوقف السيارة في وسط القرية:

- يعيشون هنا كل حياتهم، ولكنهم بدأوا يختلطون بالغير ويذهب احدهم من حين لآخر لبيع سلاله الى السياح في روزو.

مساكن القرية مكونة من اكواخ سقفها من القش ولا تختلف كثيرا عن مساكنهم قبل مجيء الرجل الابيض الى جزيرتهم. بدأ اهل القرية يتجمعون حول السيارة، خاصة الرجال والاولاد، ينتظرون الهدايا بفارغ الصبر، اما النساء فكن مترددات. قدم ماكس لهم بعض زجاجات الشراب وأما جايمس فقد اصبح يملك خمس سلال مقابل الدخان الذي قدمه لهم.

زاروا قريتين بعد ذلك. اما القرية التالية فكانت اقل نظافة وترتيبا ومساكنها عبارة عن اكواخ فقيرة. لكن ما لفت انظارهم كان قارب طويل نحيف محفور من جذع شجرة، تماماً مثل قوارب اجدادهم. وبعد زيارتهم لقرية ثانية ودعوا جزيرة الكريبي وعادوا الى البيت. كان ماكس يقود بتمهل لكي يمتعوا انظارهم بجمال الطبيعة. وقليلا ما كان ماكس وجايمس يتبادلان الحديث. ابدى ماكس قليلا من الفتور نحو جايمس منذ وصوله، الا انه كان يعامله بأدب واحترام كما يستحق الضيف. لم تعرف بني اذا احس والدها بشعور ماكس نحوه، ولكنها لاحظت انه كان متحفظا نوعا ما مع ماكس، رغم انه كان لطيفا ومؤدبا وذا قلب مفتوح. وعلقت بني آمالا كبيرة على فرص التقارب التي كانت هذه الرحلة أولها. راقبتهما النهار بطوله ولاحظت ان تصرف ماكس مع والدها كان اقل جمودا في نهاية الرحلة. ولا يعني هذا التحول الطفيف، او التقاء جايمس بنورا في معظم الاوقات، ان ماكس قد وافق على الزواج، ولكنه يدل على ان نورا مصممة على مشروع الزواج. الا ان هناك نقطتين تقلقان بني. فاما ان تتزوج نورا من جايمس

بالرغم من معارضة ابنها، فيقع انشقاق بينها وبين ماكس، واما ان تتأثر نورا برفض ابنها فتنفصل عن ابيها.

توقفوا على جانب من الطريق خارج احدى القرى، وتناولوا طعام غداء خفيف، واقترحت نورا ان يتوقفوا بعد الظهر في مكان جميل آخر ليتناولوا الشاي. رد عليها ابنها بقوله انه يعرف مكانا ملائما، وبعد برهة اخذ يساره ودخل وادياً جميلا يمر فيه نهر لايو.

- هذا جميل جدا.

قالت شيرلي.

- الا نستطيع البقاء هنا يا ماكس؟

- اعرف مكانا اجمل من هذا.

لم يزد على ذلك ولكنه التفت بعد ذلك الى جايمس وقال:

- هل احببت جزيرتنا يا سيد دافدسون؟

فاجأ هذا السؤال كلا من نورا وبني والتفتت الواحدة الى الاخرى بدهشة.

- انها سارة وجميلة.

اجاب جايمس بصوته الهادىء الموزون.

انكم محظوظون كونكم تعيشون هنا.

- هل تحب العيش هنا دائما؟

سألته نورا وهي تراقب وجه ابنها في المرآة.

- ذلك سهل اذا رغبنا فيه.

- اسعار البيوت والاراضي مرتفعة بعكس ما يتصوره البعض.

كان صوته جافاً بعض الشيء. ولكن جايمس قال:

- يمكننا ان نتدبر في شراء شيء يوافقنا. لا نحتاج انا ووالدتك قصرا فخما مثل قصرك. قد نجد كوخا جميلا او ما شابه.

لاحظت بني ان ظهر ماكس تصلب قليلا، اما لأنه لا يتصور امه متزوجة او لا يتصورها تعيش في كوخ. وعلقت نورا على كلام جايمس قائلة وفي صوتها نوع من التحدي لأنها هي الاخرى لاحظت تصلب ظهر ابنها:

- لماذا نعيش في كوخ وانا املك مالا وفيرا يمكننا من شراء بيت فخم مثل الفيلا التي نسكنها؟

- لا شك في انك تملكين الكثير من المال.

اجاب جايمس بصوته الناعم الهادىء.

ولكن المال الذي لدي لا يكفينا الا لشراء كوخ وادخال التعديلات اللازمة عليه، ولكن لن يتحول الكوخ الى فيلا.

ضايق كلام والدها بني، لأنه يتكلم بما يفكر ولا يهتم بالنتائج.

- بعد زواجنا يكون المال لنا الاثنين لا لي وحدي.

كانت كلمة نورا موجهة الى خطيبها وبصورة غير مباشرة الى ابنها. وتابعت كلامها قائلة:

- اذا قررنا العيش على هذه الجزيرة سنشتري بيتاً جميلا في مزرعة بين التلال.

- سنبحث ذلك فيما بعد!

قال جايمس باقتضاب.

لاحظت بني ان والدها كان محتداً بعض الشيء لأن هذا الموضوع أربكه، رغم ان له مزاجاً هادئاً لا تثيره الكلمات او العبارات بهذه السهولة.

توقف ماكس قائلاً ان هذا هو المكان، واضعاً حداً لحديث قد يتحول الى نقاش حاد لأن عيني نورا كانتا تنتقلان يمينا ويساراً بحركة عصبية. نزلوا من السيارة وبحثوا عن بقعة ملائمة. كان المنظر جميلا خلابا لم تتمالك بني إزاءه من ابداء ذهولها.

كانت المناطق التي مروا بها في ذهابهم الى المستوطنات والعودة منها تتخللها تلال ووديان وقرى كريبية جميلة، وسهول تعبرها الانهار، وطرق جانبية تزينها الازهار البرية وشجر التوت، وازهار الأوركيد التي كانت تلتف حول جذوع الاشجار وتختلط باغصانها. ولكن هذه المنطقة كانت تفوقها جمالاً ورونقا. من مشاهدها قمة جبل مورن كورون البعيد الذي يغطيه الضباب، واقرب منه اليهم شلالان هما شلال باغوا وشلال لايو اللذان تتساقط مياههما على الصخور مثل حبات من الفضة، لتختلط بالسيول والأنهار الجارية في السهول تحتهم.

- ماكس... مدهش! كيف اكتشفت هذا المكان؟

تلفظت بني بهذه العبارة بصورة عفوية، متأثرة بالمشهد ودون ان تفطن

الى الجفاء الشديد القائم بينها وبين ماكس منذ مرضها الثاني، وتمنت لو انها لم تتسرع في الكلام.

وعندما انتهوا كان النور قد خف ولكنهم لم يفكروا في المغادرة، رغبة منهم في التمتع بمباهج الطبيعة.

نهضت بني ومشت مسافة قصيرة ثم جلست تتأمل على صخرة، والتفتت فرأت والدها قادماً نحوها. ابتسمت له عندما اقترب وجلس بجانبها ولم يتكلم. كانا مأخوذين بصوت جداول المياه ونقيق ضفادع الجبل. ولما طال سكوتها نظرت بني الى والدها ولاحظت عبوساً على وجهه.

سألته بني بصوت خافت متخوفة من سماع ما لا يعجبها:

- ما بك؟

بلع ريقه قبل ان يتكلم وكان ينظر امامه. ثم هز رأسه وقال:

- مصاعب يا بني. نعم، مصاعب كان يجب ان أتنبه لها قبل الآن. انني في حيرة وأي حيرة، وارتباك.

التصقت بني بأبيها ووضعت رأسها على ذراعه. استولى عليها خوف كبير ولكنها سألت بصوتها الناعم:

- ما هي هذه المصاعب يا أبي؟

- نورا... كان يجب ان اتوقع معارضة من ابنها.

هذا ما كانت تتخوف منه. قالت:

- ولكن العلاقة بينك وبين نورا جيدة. ألم تكونا تتكلمان عن بيت تشتريانه؟

- نعم...

قال وهو ينظر الى النهر مفكراً.

كلام يا بني، مجرد كلام.

لم ترَ بني في صوت والدها ذلك الحزم التي تعرفه فيه، وبدا متعبا ومسناً. التصقت به وقالت:

- انت تخشى ان تفسخ نورا الخطوبة؟ لا تقلق يا أبي. لن تخضع نورا لابنها... انا اكيدة من ذلك لأنها كانت تؤكد ذلك بنفسها رغم معارضته. نورا لن تفسخ الخطوبة.

لم يجب والدها، بل تابع التحديق في النهر والاشجار المجاورة له، بينما

كانت بني تنتظر منه ان يتكلم.

واخيراً التفت نحوها. ورأت فيه عينين حزينتين ولكن نظرة فيها عزم وتصميم مما جعل قلبها يدق بسرعة.

ـ اعرف ان نورا لن تفسخ الخطوبة. ربما فسختها انا.

لم تصدق بني ما سمعت واخذت تهز رأسها محتجة:

ـ انت. . . ؟ لا، لا تستطيع ان تعمل ذلك وتخضع له بهذه السهولة. فكر في حياتك وحياة نورا. . . انتما حران في تقرير مصيركما.

ـ المال اساس هذه الصعوبة يا بني. لو لم تملك نورا هذا المال لهان كل شيء. ولكن ماكس سيخسر ثروة بسبب هذا الزواج. هل تدركين ذلك؟

ـ ثروة؟

الآن فقط فهمت سبب معارضته في زواج والدته الذي سيحرمه من مالها. . . اضافت:

ـ انك لن تدع نورا تترك ثروتها لابنها ولن تسامح في ذلك!

ـ طبعاً لن اترك نورا تغير رأيها، ولكن ما يؤلمني هو ان ماكس يعتقد اني سأبدد ثروة والدته قبل ان يحدث لاحدنا شيء.

آلمها حديثه كثيرا ودمعت عيناها. كان ابوها حبها الوحيد في حياتها منذ ان كانت في الثامنة ولا تستطيع ان تتحمل كلاما يشير الى موته.

كيف يتجاسر ماكس على ذكر موت نورا او أبيها؟

لم يتكلم احدهما مدة من الزمن. ثم قال جايمس:

ـ اراد رجال آخرون الزواج منها، ولكن يبدو انهم كانوا يريدون مالها فقط.

قالت بني:

ـ رفضت نورا ان تقبل أيا منهم. انت الوحيد الذي قبلت به.

ـ وهؤلاء الرجال سبب تحفظ ماكس من جهتي.

ـ لا حاجة به لأن يتحفظ منك!

قالت بني ذلك بلهجة كلها غضب لفت انتباه والدها الذي نظر اليها بعينين مندهشتين وقال:

ـ هل تباحثت في هذه المسألة مع ماكس؟

لم ترد على سؤاله على الفور وندمت لأنها بعثت في نفسه الشك. الآ انها

قالت:

ـ نعم، تكلمنا عنها.

ـ وبالطبع اثر رفضه في شعورك. ولاحظت الجفاء بينكما من اول دقيقة. واستطيع ان اعلمك اني في بعض الاحيان كدت انفجر لولا اني ضبطت اعصابي لأني اكره الطريقة التي يكلمك بها.

ـ انا السبب في ذلك.

قصت بني على والدها ما جرى بينها وبين ماكس باختصار. ولاحظت التعابير التي كانت تظهر على وجهه، ولكنها لم تستطع تفسيرها. وتوقفت عندما رأت دلائل الانزعاج في عينيه. وعادت الى قصة ابيها مع نورا فقالت:

ـ لا تتخل عن نورا يا والدي. سيتحطم قلبها. فهي تحبك.

ـ ولكن لي كرامتي يا بني.

ـ شعورك بالكرامة او كبرياء النفس قد يتسبب في اخطار. ان حياتك لأهم بكثير. واذا افترقتما فلن يعرف احدكما السعادة مرة اخرى.

ـ هذه الاشياء يستطيع الانسان ان يتغلب عليها، وكل أذى قد ينتج عنها من حين الى آخر، يزول مع الزمن الذي هو بلسم الحياة. نعتقد خطأ ان الزمن لا يشفي آلامنا، ولكنه يفعل ذلك. انه يشفيها دائما يا ابنتي.

اصاب بني ذهول كبير لاستعمال عبارة «ابنتي»، لانه لا يستعملها الا في حالات الانفعال. لماذا استعملها الآن؟

ـ نعم، الزمن يشفي الآلام، ولكن آثارها لا تزول، ولن تكون كما انت الآن اذا افترقت عن نورا، خاصة بعد ان اصبحت تحبها.

خيّم عليهما الصمت، وبدت الجبال والغابات حولهما زرقاء قاتمة، وكانت تميل الى السواد اذ بدأ النهار يعتم بسرعة. وأحاطت برؤوس الجبال هالة بنفسجية من اثر غروب الشمس. كل شيء كان هادئاً عدا خرير المياه التي كانت تنحدر لتنضم الى نهر لايو.

ـ لا استطيع ان اتزوج نورا في احوال كهذه، فقد يخلق هذا مشاكل ومتاعب.

دلّ صوته على قرار نهائي. فلم تتمالك بني من البكاء بكاء حارا، واستطاعت رغم ذلك ان تقول:

- كنت اتوقع خلاف ذلك، أتذكر كيف كنا نتكلم عن المستقبل؟ كنا نقول انه ستكون لك زوجة وستكون لي أم... وأخ؟

- أخ...؟

تقلصت عضلات وجهه كمن يشعر بألم مفاجىء. ومن ثم انبسطت اساريره وقال:

- بني، يبدو لي ان والدك لم يكن الاحمق الوحيد في كل هذا.

كانت حمقاء، هي الاخرى، وفهمت الآن لماذا استعمل عبارة «ابنتي».

كان والدها قد قرأ ما بين السطور وهي تعيد على مسامعه قصتها مع ماكس...

ما عسى والدها ان يفكر الآن؟ اما هي فقد احست باشمئزاز، لأنها ادركت انه اذا كان من الجنون ان يقع الانسان في حب رجل لا يرغب بالزواج، فأكثر جنونا ان يقع الانسان في حب بخيل همه الوحيد المال، وتأمين ثروة والدته لنفسه بعد موتها. ايقنت الآن ان ماكس رجل لا يستحق حتى مجرد التفاتة.

سمعت ماكس يناديها بصوت جاف وبلهجة الأمر. تجاهلته بنّي، لكن والدها تململ وبعد ان امسك بيدها قال:

- علينا الآن ان نفكر جديا في العودة الى انكلترا.

اومأت برأسها ولكنها اخذت تبكي بمرارة وقالت لوالدها:

- اسبقني يا ابي. انا ابكي ولا اريد ان يرى ماكس اني... ان يرى الآخرون اني...

- كلا، سأنتظرك لانك ستضيعين وحدك.

ولكنها رفضت وقالت:

- ارجوك، اذهب... والا انزعج ماكس.

- وماذا استطيع ان اقول له؟

- قدم له اي عذر... قل له اني آتية لانه لا يعلم اننا كنا معا. قل له اني في طرف الوادي... اوه، اي شيء ارجوك، لا يجب ان يروني هكذا. سآتي حالما اغسل وجهي في ماء النهر.

تركها والدها شبه مرغم. ونهضت بني فاقتربت من النهر. غمست منديلها في الماء، واخذت تبلل وجهها، وفجأة انتصبت واقفة وجمد الدم في

عروقها لأنها احست انها لم تكن وحدها...

- من هناك؟

صرخت بصوت مرتجف:

- كيف يحق لك ان ترغمينا على انتظارك؟ ألم تسمعيني أناديك؟

كان هذا ماكس واقفا امامها كالعملاق في غسق المساء.

- نعم... سمعت، وكنت سآتي حالاً.

كانت تعصر منديلها بعصبية وقلبها ينبض بسرعة من الخوف. وسألها ماكس:

- أين والدك؟ هل ذهب بمفرده مثلك هو الآخر؟

- اتجه في هذا الطريق. اعتقد انه وصل الآن.

نسيت انها قالت لوالدها ان ماكس لا يعلم بوجودهما معاً.

- هل كان معك؟

- نعم، كنا نتحادث.

توقفت فجأة اذ انها فطنت لهفوتها.

- اذن، لماذا تركك وحدك هنا في الظلام؟

- اردت ان ابقى وحدي برهة من الزمن.

- لا تكوني حمقاء! لماذا تركك؟

- قلت...

هل تطلعه على الحقيقة؟ هل تقول له انها كانت تبكي بسبب معاملته لوالدها، وانهما قررا العودة الى انكلترا وان والدها سيتخلى عن نورا؟ لأن والدها لن يسمح لها بذلك، حيث انه يريد ان يتحدث مع نورا أولا. لم تستطع بني اخفاء رجفتها، واجابت عندما سألها ماذا كانت تعمل عند النهر:

- سقط منديلي في النهر، وانا جاهزة لأن آتي الآن، وآسفة لاني تركتكم تنتظرون.

تركته وبدأت تركض كأنها مدفوعة بقوة خفية. كانت الطريق وعرة وكلها حجارة وكادت تقع لو لم يمسكها بذراعها.

- يا بلهاء ما بك؟ لماذا كنت تبكين؟

- لا استطيع ان اقول لك.

وارادت ان تفلت منه الا انه شد على ذراعها بقوة آلمتها. وسألها ثانية وهو يهزها هزاً:
- لماذا كنت تبكين؟ أهو غراهام؟
سألته مذهولة:
- غراهام؟ ماذا تعني بقولك هذا؟
- اعتقد ان غراهام تخلى عنك مؤخراً.
- هو...؟ ماذا تعني؟
هل شيرلي هي التي تخلق هذه المشاكل؟ وتابعت بني كلامها:
- ولماذا تعتقد ان غراهام تخلى عني؟
حاولت الافلات منه الا انه كان قابضا على ذراعها بشدة.
- لأني افترض انكما كنتما تخرجان سوياً...
- لا، لم نخرج ابدا.
- لا تنكري ذلك يا صغيرتي، انت حرة في الخروج مع من تشائين. غراهام كان ممسكا بيدك في غرفة النوم، وهذا برهان على ما كان يحدث بينكما...
صرخت في وجهه:
- مهلا! لا يهمني ما تقول!
وها هما يتشاجران مرة اخرى ويتبادلان الاهانات. أضافت:
- اريدك ان تعلم انه لم يجر اي شيء بيننا، وليس لغراهام مركز خاص عندي، ولذا اعلم من اين اتيت بهذا الانطباع!
- انه يخرج مع شيرلي الآن...
- اوه، وكيف عرفت؟
- كانت هفوة من شيرلي. والأصح هو ان شيرلي تفوهت بذلك عفوا واجبرتها على قول الحقيقة.
- انك تنجح دائما بأساليبك هذه.
طبعاً لم تلاحظ الغضب في عينيه بسبب الظلام. قال ماكس:
- لماذا كذبت باختلاق شخصية صديقة لك لا وجود لها؟
- اجبرت على ذلك. فوجئت ولم ادر ما اقول.
حيّرها مسلكه الغريب. انه على حق اذا غضب منها لكذبتها، ولكن

لماذا يهتم بعلاقتها مع غراهام؟ كانت قبضته تؤلم ذراعها.
- تقولين ان ليس ثمة علاقة خاصة بينك وبين غراهام، فلماذا كنت تبكين اذن؟ هناك سبب وجيه لدموعك.
كان مصراً على الحصول على ايضاح منها. ولتتخلص منه عزمت ان تدعي ان بكاءها كان بسبب غراهام فعلا. وقبل ان تفتح فمها قال ماكس:
- انا مصر على معرفة سبب بكائك حتى لو بقينا هنا الليل كله.
- حسناً، انا منزعجة لأنه اهملني كما قلت.
- كنت متاكدا من ذلك!
لماذا كل هذا الغضب بسبب غراهام ولماذا هذا الاهتمام؟
- كنت متاكدا حتى عندما كنت تنكرين ذلك بكل قواك، واني محتار من امرك. انت تكذبين ولكن دون ان تقنعيني.
أذهلها كلامه. هل تحتاج الحقيقة الى اقناع ام انه يقول ما يتوارد على خاطره او يتعمد اهانتها؟ كيف يمكن التوفيق بين هذه الوسيلة الدنيئة وبين قوة خلقه؟ حاولت جهدها كي تستنتج شيئاً واضحا من اقواله... لأنها لا تستطيع ان تستخلص اي شيء من عينيه في الظلام. وكلما فكرت كلما صعب عليها ان تفهم شيئاً. في النهاية سألته لمجرد الحديث:
- لماذا يكون كذبي غير مقنع؟
- لأن شيرلي قالت ان غراهام كان صديقك الشخصي، وانه ابتعد عنك الآن وتحول اليها.
- فهمت الآن... هل سنعود الى السيارة؟
سيكون حساب لها مع شيرلي عندما تكونان وحدهما. ولكن يبدو ان ماكس أراد المزيد من التأكيد، فسألها:
- هل ما قلته صحيح؟
اجابت بسخرية:
- اي ان غراهام كان صديقي؟ لماذا تسأل؟ الا تصدق شيرلي؟
- سألتك اذا كان ما قلته صحيحاً.
- نعم، نعم يا ماكس. كل ما قلته صحيح.

١٠ - أفضل من الكلام!

كانت بني ونورا منهمكتين في كتابة الفصل الاخير من الكتاب، ولكن لاستكمال هذا الفصل كان عليهما ان تنتهيا من بعض اعمال البحث. وقد قامتا برحلة لهذه الغاية الى البحيرة ورافقهما فليكس في هذه الرحلة بصفة دليل وسائق لسيارة الجيب. ولتسليتهما كان يغني اثناء الطريق. قامت نورا وبني بجولات هنا وهناك، وفي عدة اماكن كانتا تسيران على الاقدام لاستحالة السياقة. ومن بين الاماكن المهمة التي زارتاها الينابيع الحارة حيث كانت البراكين فائرة في وقت ما. جمعتا عدة نماذج من الأتربة من مختلف المناطق البركانية، وكانت معظم هذه المناطق لينة التركيب، فكانت هناك انهيارات كلما تساقطت الامطار بغزارة.

عادتا متأخرتين من رحلتهما، ولكنهما توجهتا مباشرة الى المكتب لدراسة النماذج وتدوين النتائج.

اما اوقات الراحة التي كانت بني تتمتع بها فهي السباحة وقت الصباح. لم يأت ماكس للسباحة في اليومين الاولين، وظنت انه ربما كان يتفاداها. اما في اليوم الثالث والايام التي تلت، فقد كان يسبقها الى المسبح. وبالرغم من انهما يسبحان معا ويتبادلان الحديث احيانا، كانت الصداقة بينهما قد اختفت. ويبدو ان ماكس بيت لها حقداً جديدا بينما كانت هي متمسكة برأي واحد هو انه بخيل انتفاعي لا همّ له الا عمل المستحيل كيلا يخسر ثروة والدته.

عندما نزلت الى المسبح صباح يوم الاثنين وجدت شيرلي هناك. وهذه هي المرة الاولى التي تلتقيان فيها منذ رحلة المستوطنات الكربية. استغلت

هذه الفرصة لتقول لشيرلي رأيها فيها. فسألتها غاضبة:

- لماذا تقولين مثل هذه الاشياء؟ أي لذة تشعرين بها عندما توهمين ماكس بأنني وغراهام نخرج سوياً؟

كانت شيرلي جالسة على حافة البركة تداعب الماء بأصابع رجليها. اجابت:

- لم افكر في ان ماكس سيعيد عليك ما قلته له، واني اتساءل لماذا فعل ذلك.

تنهدت بني وقالت:

- هذا لا يهم. ولم تجيبي على سؤالي بعد... لكن دعيك من هذا لأني اعرف الجواب.

- تعرفينه؟ ما هو؟

لاحظت بني ان شيرلي لم تكن مرتاحة البال تماماً. ولم تهتم بجوابها بل انها قالت:

- لا حاجة بك ان تغاري مني يا شيرلي. ماكس يكرهني كثيراً، وسيكرهني دائماً.

سألتها شيرلي بعجرفة:

- ما الذي يجعلك تعتقدين اني أغار منك؟

- كان هذا واضحا منذ البداية، وانت اعترفت بذلك.

غضبت بني من عدم اكتراثها.

- رجوتني ان اكون صديقتك ولكن فعلتك هذه لم تكن عمل صداقة، ما قولك في ذلك؟

- اذا لم يتزوجني ماكس اريده ان يبقى عازباً.

قالت شيرلي ذلك بمنتهى الصراحة واضافت:

- هل يهمك اذا كرهك ماكس؟

- انا لا أبالي مطلقا برأي ماكس فيّ.

اجابت بني بعصبية.

- انه حرّ في ان يعتقد ان لي عشرة اصدقاء! واما عن تمنياتك ان يبقى اعزب، فهذا احسن شيء، لأنه اذا صدف وتزوج فستكون حياة زوجته مليئة بالتعاسة والشقاء.

- اوه... انك غاضبة يا بني، وهذا ليس من عادتك! هل ماكس هو السبب؟ ما الذي يجعلك تعتقدين ان زوجته ستكون تعيسة؟ كنت اريد الزواج منه، اتذكرين؟

- انت محظوظة لأنه ليس من رأيك، فهو خال من الاحساس، او حتى الشرف.

وتابعت بني قولها:

- ويعتبر نفسه انسانا خارقا فأصبح متغطرسا لا يطاق. ولا يفهم للشعور او للشفقة معنى، واكثر من ذلك، ان طمعه في المال لا يحد، فهو لا يفكر في اي شيء آخر... المال كل شيء بالنسبة اليه.

كانت بني على آخر نفس عندما انتهت. ولكنها ارتاحت لأنها ازاحت عن صدرها حملا ثقيلا، والآن ستجد متعة في الماء الذي سيبرد من حدة مزاجها.

قفزت الفتاتان الى الماء، ولم تسبحا الا قليلا عندما رأتا ماكس يخرج من بين الشجر. كان بلباس السباحة وما ان اقترب من المسبح حتى بادرته شيرلي بقولها:

- ماكس، هل سمعت؟

رفت عينيها بسرعة وهي تتكلم.

كان ينظر الى بني بحقد وغطرسة. ورغم انها خفضت رأسها كانت تعلم انه لم يرفع عينه عنها. وسمعته يقول لشيرلي:

- تعالي الآن. لنبدأ درسك!

تركت بني المسبح وهي تشعر بالحرارة تغمر وجهها، وتعرف انها في موقف حرج. من المؤكد انه سمع حكمها الصارم عليه وهذا ما كانت تريده. فهي تعتقد انه اذا عرف رأيها فيه فقد يحاول ان يحسن بعض ما فيه من طبع دنيء.

كان والدها في الحديقة عندما نزلت لتناول الفطور. كان ينظر حالما الى مياه بحر الكريبي، وحيى ابنته بابتسامة وهي تقترب منه.

- هل استمتعت بسباحتك؟

- لم اسبح كثيرا. منذ متى نهضت؟

- نهضت مبكرا.

مشى كلاهما الى مقعد خشبي تحت شجرة ارز، وجلسا يتحدثان بانتظار وصول الآخرين للافطار. وكان من جملة الحديث ان سألته بني:

- هل قرارك نهائي؟ ألا تعيد النظر فيه؟

أخافها منظر والدها الذي تقدم في السن منذ وصوله، وكل ذلك بسبب ماكس.

- حاولت ان اخبر نورا الا انها منشغلة حتى اننا لم نتقابل الا القليل طيلة هذا الاسبوع. وسأحاول ان اعلمها هذا المساء اذا اجتمعت بها. نعم يا بني، قراري نهائي.

- متى، متى سنرحل عن دومينكا؟

لم تتوقع بني مطلقا هذه المفاجآت... فكرت في عمل نورا، الا انها ستجد امينة سر غيرها بكل سهولة.

التفت أبوها اليها واخذ ينظر اليها بانتباه، ثم قال:

- حالما ارتب امور السفر. وارى انه من الأنسب ان نرحل في اقرب وقت ممكن.

حزنت بني لهذا القرار، ورأت انها ووالدها سيتغلبان على احزانهما اذا تركا الجزيرة في العاجل القريب. قالت:

- انت على حق يا والدي، وعلي ان اعلم نورا باستقالتي مسبقا، وسأعطيها انذار شهر حسب الاصول.

- سيكون كل ذلك مفاجأة لها.

- لا ادري كيف ستتقبل هذه الاوضاع.

قال متنهدا:

- لا يهم ذلك يا بني. ستتغلب عليها كما سأفعل أنا الآخر.

الجميع سيتغلبون مع الزمن، ولكن هذا الزمن سيكون طويلا ومؤلما...

المفاجأة الكبرى كانت شيئاً لم تتوقعه ابدا. فعندما دخلت نورا المكتب في صباح اليوم التالي، سلمتها رسالة بطردها من العمل. والذي اذهلها اكثر من ذلك كان ثورة غضب نورا، تلك المرأة الهادئة اللطيفة. تكلمت نورا بعصبية جامحة وهي تقول:

- سأتخلص منكما انتما الاثنين.

لم تصدق بني ما ترى وتسمع، واذا كانت اعتقدت في السابق ان ماكس ورث مزاجه العصبي من والده، فقد رأت الآن ان لعصبية امه حصة فيه.
تابعت نورا قائلة:

ـ لا اتصور كيف أضعت وقتي عل رجل لا يهتم بي ويهملني هكذا وانا في هذا العمر! اوه، لا استطيع ان اركز افكاري في عملي، لا استطيع ان اشتغل... انا المرأة النشيطة، لا استطيع ان أشتغل الآن! وكتابي لن ينتهي في الوقت المحدد... لن ينتهي ابداً، ولن ابالي بذلك ولن احاول حتى لمسه!

كانت بني واقفة ترتجف. تعرف ان الشخص الذي يسبب لها هذا الاضطراب الهائل هو ماكس... ولكن نورا الحلوة المزاج؟ الأم الحنونة...؟

ـ يجب ان تنهي كتابك.

قالت بني متلعثمة ولا تدري اذا كان كلامها مناسباً.

ـ الكتاب؟ هل هذا همك الوحيد؟ لست افضل من ابيك... ابعدي عني، وكلما اسرعتِ في الرحيل كلما كان ذلك افضل!

ـ لكن، نورا...

ـ لا تناديني نورا! انا رئيستك. تذكري ذلك، يا الهي! لا اعرف ما اقول. لست رئيستك الآن. لقد طردتك.

ـ نورا... عفواً. سيدة ردفيرن، لا اعرف ماذا قال لك والدي، ولكن...

ـ لم يقل شيئاً، بل هجرني كما قلت!

ـ ألم يقل لماذا هجرك؟ ألم يبين لك السبب؟

تقدمت بني قليلا الى الامام ولكنها تراجعت عندما رأت عيني نورا تقدحان شررا.

ـ قال انه لا يحبني... لا يحبني بعد كل تصريحاته وتأكيداته السابقة! انا حمقاء، عاطفية حمقاء، حتى أصدق كل ذلك. اعتقد ان ماكس عل حق وان والدك هو الآخر يهتم بمالي. ولما رأى ان ماكس واقف بالمرصاد ولن يعطيه الفرصة للحصول عليه تخلى عني!

ـ كيف تتهمين والدي هكذا يا نورا؟ لا يريد مالك ابدا! هل قال والدي

انه لا يحبك؟ هناك سوء تفاهم...

كانت نورا ممسكة بقلم في يدها، وفي غمرة غضبها رمته عل المكتب فسقط عل الارض، وانحنت بني لتلتقطه لكنها تركته حيث هو.

ـ كم مرة يجب ان أعيد ذلك؟ نعم، قال انه لا يحبني!

كان ذهول بني اكثر مما تتحمل، وتساءلت لماذا اتخذ والدها هذا الاسلوب. قالت:

ـ في أي مناسبة قال والدي ذلك؟ اي ما الذي جعله يقول ذلك؟

ـ يبدو انك تحققين معي. طلبت اليك ان تخرجي من هنا.

لم تتحرك بني من مكانها، بل قالت:

ـ هناك خطأ. أبي يحبك...

ـ يحبني؟

سخرت نورا منها:

ـ لا تذكري تلك الكلمة امامي. والدك ما هو الا عابث!

ـ لا يمكنني ان اصدق ان والدي قال انه لا يحبك.

ـ هل تعنين اني اكذب؟

ـ كلا، بكل تأكيد لا!

ـ اذن اوضحي!

ـ انا اقول... انه يحبك...

ـ يا آنسة دافدسون،

وقالت نورا بهدوء:

ـ اذا أعدت كلمة حب سأغضب من جديد.

وبالرغم من حراجة الموقف شددت بني عل نفسها كيلا تضحك، لأن نورا عادت الى طبيعتها واستولى عليها الشرود حتى في وضع كهذا، ونسيت انها كانت منذ لحظات بركاناً هائجاً.

ـ اذا قال والدي انه لا يحبك فهو كاذب، ولديه أسباب وجيهة ليقول ذلك. فأنا اعرف مدى حبه لك.

عبست نورا قليلا ولكنها كانت هادئة.

ـ هل رايت والدك هذا الصباح؟

ـ كلا، كان بعد في فراشه وانا اتناول الفطور، ثم اتيت رأساً الى هنا.

- من عادتكما تناول الفطور معا، أليس كذلك؟
- في معظم الاحيان.
- ولكنه لم يتناول فطوره معك اليوم؟
- كلا، واظن انه تأخر في النوم. سأبحث بنفسي لأكشف سر هذه المسألة.

وجدت ورقة كتب عليها ان جايمس وشيرلي ذهبا الى روزو، وانهما سيعودان بعد الغداء. وعندما عادت بني الى المكتب وجدت نورا واضعة رأسها بين يديها. رفعت نورا رأسها وكان وجهها مبللاً بالدموع.

- بني، حبيبتي، ان ضميري يتألم. سامحيني. انت لا تلامين على معاملة جايمس لي. كان يجب الآ اتمادى في معاملتي لك هذا الصباح. هل تتابعين عملك معي؟
- طبعا يا نورا.

دمعت عينا بني لأنها تحب نورا كثيراً، ولأنها اشفقت على هذه المرأة التي تتألم وكأنها جرحت. لماذا تسبب والدها في تعاستها؟ كيف يقول لها انه لا يحبها. . .؟ لكن، مهلا. فهمت الآن.

- نورا، عندما تكلم والدي لأول مرة عن فسخ الخطوبة، ماذا قال بالضبط؟
- ماذا تعنين؟ كنا جالسين وحدنا بعد العشاء. فاجأني بقوله ودون مقدمات انه يريد ان يفسخ الخطوبة.
- هل ابدى سبباً لذلك؟
- قال انه لا يحبني.
- وقبل ذلك، الم يقل أي شيء آخر؟
- كلا، اوه، نعم. قال انه سيفسخ الخطوبة بسبب ماكس. قال ان له كبرياءه هو الآخر وكرامته، ولا يتحمل ان يقول ماكس عنه انه صياد مال.
- وما كان جوابك على ذلك؟
- رفضت ان تفسخ خطوبتي لأسباب تافهة كهذه.
- وترفضين ان يكون هذا سببا لفسخ الخطوبة؟
- قلت لك عدة مرات ان ماكس لن يؤثر علي.

صمتت بني. عندما رأى والدها انه لم ينجح في فسخ الخطوبة بعد

تأكيدات نورا له ان المال ليس عائقا بينهما، واكتشف ان ابنته تحب ماكس الذي ربما لن يتزوجها، وجد ان الوسيلة الوحيدة لإبعاد بني عن دومينكا هو اختلاق طريقة مقنعة لفسخ الخطوبة، وهي ان يؤكد لنورا انه لا يحبها، مضحياً بسعادته هو وسعادة نورا معاً.

لم تتمكن بني من ضبط نفسها حتى لا تبكي، وصممت ان تصارح والدها بهذا الأمر، مع العلم ان املها ضعيف في اقناعه لأنها تعرف ان لا شيء يثنيه عن قرار اتخذه. زاد حقدها على ماكس وكراهيتها له. وتمنت ان تنتقم منه لتشفي غليلها.

- حبيبتي بني، انت تبكين. . .؟
- ليتني استطيع اعادة المياه الى مجاريها. . .
- انا متأكدة من انك تستطيعين، ولكن لا نقدر ان نعمل شيئاً عندما يكون الحب من جانب واحد فقط.

فكرت بني في ماكس وتساءلت اذا كان له قلب يحب.

هطلت امطار غزيرة تسببت في انهيارات ارضية في الجبال. ولم تنتبه نورا وبني الى الخطر بسبب انشغالهما في التنقيب. تسبّب الفيضان في تأخير عملهما مع ان بني كانت قد وعدت نفسها بالانتهاء منه قبل رحيلها عن الجزيرة مع والدها في بحر اسبوع. وفجأة صرخت والرعب بادٍ في عينيها:

- نورا انتبهي. . .

كانت تنظر الى كتل من الأتربة والحجارة تنحدر من الجبل، ولم يكن امامها مجال للهرب اذ طمرتها هذه الكتل في بضع ثوان بعد ان صرخت لتنبه نورا الى الخطر. وفجأة وجدت نفسها مدفونة تحت أطنان من الوحل.

فتحت عينيها ورأت نفسها في غرفتها، ولم تستطع الحركة لأن كل جسمها كان ملفوفاً بالضمادات.

وصرخت وهي تحاول ان تنهض:

- نورا. . . نورا! هل ماتت نورا؟
- أمي بخير.

كان الصوت هادئاً ومطمئنا. شعرت بني بلمسة يد ناعمة على جبينها، رأت ابتسامة على وجه من كلّمها فابتسمت هي الاخرى.

- كيف خرجت نورا. . . كان كل شيء يطمرها.

كان صوتها ضعيفاً. رأت والدها امامها شاحب الوجه، كئيباً، وبدا شعره ابيض في نور شمس الغروب.

- ما كان يجب ان تقول لنورا انك لا تحبها يا أبي. نورا لطيفة ولا تستحق هذه الآلام.

- اهدئي يا حبيبتي. كل شيء على ما يرام بيني وبين نورا.

بدا وجهه حزيناً ونادماً.

- يجب ان تواسيها، أليس كذلك؟

- نعم، ساعوض عليها. كيف تشعرين الآن؟

- اتألم في جسمي كله.

- وستلازمك الأوجاع مدة من الزمن يا بني.

هل كان هذا ماكس؟ كانت يده ما تزال على جبينها... ولكن ماذا يعمل؟ كان يجعل رأسها يدور، وكانت عاجزة عن التفكير. اصابتها رجفة صغيرة وغابت عن الوجود مرة ثانية.

كانت تسمع اصواتاً، ولكنها كانت ضعيفة وبعيدة.

- اشعر بعذاب ضمير. ماذا كان علي ان افعل؟

- فعلت ما كنت فعلته انا نفسي لو كنت هناك. اتجهت افكارك مباشرة نحو تلك التي تحبها اكثر من أي شيء آخر.

- كان القرار الذي اتخذته رهيباً، واصعب الاشياء هو ان يقرر الانسان وحده. واني لا اتوقع ان تسامحني بني.

- ان بني ستقرر وتفهم.

ما انعم هذا الصوت وما ألطفه. ودت لو تعرف صوت من هذا.

- من حسن حظنا انك كنت هناك والا لما عاشت أمي، لأن كمية الأوحال التي دفنتها كانت اكثر من تلك التي دفنتك.

- فعلاً كان هذا خطأ. كنت اتجول ولم اعرف ان بني ونورا كانتا في تلك الانحاء.

- ألا ترى انك تحتاج الى بعض الراحة؟ لقد عملت عملاً بطولياً في رفع الانقاض عنها.

- ولم يتأخر بعض الرجال في الانضمام الي في عملية الانقاذ. أرجو الا أقع في محنة كهذه يا ماكس. بينما كنت ارفع التراب عن نورا كنت ارتجف

خوفاً من ان بني قد تكون في حالة نزع!

عادت وسمعت هذا الصوت الناعم... ما ألطفه.

- لا تفكر بذلك يا جايمس. أنصحك بأن تستريح. قد تفيق والدتي بعد ساعة وتحب ان تراك بجانبها عندما تفتح عينيها، فاغتنم هذه الفرصة واسترح.

- سأستريح... هل ستكون بني بخير؟

- لا تزعج نفسك بهذا الصدد. ساعتني بها احسن عناية.

قال الطبيب ان بني ستلازم الفراش مدة شهر قبل ان تشفى تماماً. الا ان ذاكرتها ستستعيد قوتها اسرع من جسمها. وبالفعل سرعان ما عاد ماكس وبني الى جدالهما، ولكن ليس كالأيام السابقة.

وفي احدى الامسيات الجميلة بينما كان ماكس جالساً بالقرب من سريرها، ممسكاً بيدها ينظر اليها نظرة خاصة كانت مستحيلة سابقاً، تقدم منها وطلب يدها.

- هذا اذا استطعت ان تتحادي العيش مع حمار متكبر، وشخص غطرسته لا تطاق وينسب الى نفسه كل الأهمية...

- ماكس... كفى!

- ... مع رجل بدون احساس او شفقة، يعبد المال... اذا كنت تستطيعين ان تتحملي ذلك وغير ذلك من الرذائل، قولي نعم.

كانت بني تغطي وجهها بيديها، فرفعها ليرى وجهاً كله سعادة.

سألته وهي تنتفض من البهجة:

- أليس في نيتك ان تصلح نفسك؟

- يا حبي، سأفعل كل شيء!

- كل شيء؟ أي انك ستدعني أفعل ما يحلو لي؟

- بكل تأكيد، اتبعي الطريق التي تريدين.

- ولن اتلقى منك ولو امراً واحداً؟

- ليس هذا فقط بل لن احلم حتى بالتفكير في ذلك.

- في هذه الحال... نعم، أظن اني سأتزوجك.

انحنى وطبع قبلة على جبينها ثم قال:

- سنعقد قراننا حالما تشفين.